أدب الأطفال والأدب المقارن
بين (كليلة ودمنة) و(الكوندي لوكانور)

Children's Literature and Comparative Literature Between (Kalila and Dimna) and (El Conde Lucanor)

أحمد عادل عبد المولى*

ahmed.abdelmawla@must.edu.eg

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى الوقوف عند حكايات كليلة ودمنة التي أثرت في الكوندي لوكانور لنرصد أوجه الاتفاق والافتراق بينهما من ناحية، ولنقف عبر آليات التحليل النقديّ على جسر الالتقاء الواصل بين أدب الأطفال والأدب المقارن.

وسيتناول الدرس بالتحليل المقارن الحكايات الثلاث من كليلة ودمنة التي ظهر تأثيرها بقوة في الكوندي لوكانور، وهي بترتيب أبوابها في كليلة ودمنة كما يأتي:

1- حكاية (الأسد والثور)، وهي التي ظهرت في الحكاية الثانية والعشرين من الكوندي لوكانور: بعنوان (ما حدث للأسد مع الثور).

2- حكاية (البوم والغربان)، وهي ما كان لها صداها في الحكاية التاسعة عشرة: (ما حدث للغربان مع البوم).

3- حكاية (الناسك وابن عرس)، وهي ما بدا تأثيرها واضحًا في الحكاية السابعة: (ما حدث لدونيا تروخانا).

* أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والمقارن، ووكيل كلية اللغات والترجمة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، والمطرب المنفرد بدار الأوبرا المصرية.

وسيكون منهجنا هو أن نذكر الحكاية العربية في كليلة ودمنة ملخصة، ثم نتبعها بالنص الأصلي الإسباني من الحكاية المشابهة لها من الكوندي لوكانور، ثم نردفها بالترجمة العربية، ثم التحليل المقارن للحكايتين، وذلك على ثلاثة مباحث وفقًا لكل حكاية.

وبذلك تقدم هذه الدراسة النظرة المتأنية الفاحصة لحكايات العملين باعتبارها مثالا جيدًا لأدب الأطفال والأدب الرمزي من ناحية، والأدب المقارن من ناحية أخرى في التراثين العربي والأجنبي.

<u>الكلمات المفتاحية:</u> أدب الأطفال، الأدب المقارن، الأدب الإسباني، كليلة ودمنة، الكوندي لوكانور.

Abstract:

This research aims to examine the tales of (Kalila and Dimna) that influenced El conde Lucanor, to observe the points of similarities and differences between them on the one hand, and to spot the mechanisms of critical analysis on the bridge of convergence between children's literature and comparative literature.

The study deals with the comparative analysis of the three tales from Kalila and Dimna whose influence appear strongly in El conde Lucanor, which are arranged in the order of their representation in the book ,(Kalila and Dimna), as follows:

1- "The Lion and the Bull", which appeared in the twenty-second tale of El conde Lucanor: entitled "What Happened to the Lion and the Bull".

2- "The Owl and the Crows", which had its echo in the nineteenth tale entitled "What Happened to the Crows and the Owl".

3- "The Hermit and the Weasel", whose influence was clearly evident in the seventh tale entitled "What Happened to Doña Trujana".

The approach adopted is to mention the Arabic tale in (Kalila and Dimna) in a summary, following it with the original Spanish text of the similar tale from Conde Lucanor, then adding the Arabic translation followed by the comparative analysis of the two tales, in three sections according to each tale. Thus, this study presents a careful and scrutinizing look at the tales of the two works as a good example of children's literature and symbolic literature on the one hand, and comparative literature on the other hand in the Arabic and foreign heritages.

Keywords: Children's literature, comparative literature, Spanish literature, Kalila and Dimna, El Conde Lucanor.

مقدمة

لا أنسى أن من أوائل ما أهداني به والدي –رحمه الله– وأنا في ميعة الصبا من قصص الأطفال لأقرأها، كانت مجموعة قصصية من حكايات كليلة ودمنة، هذه الحكايات التي ستظل من أبرز معالم أدبنا العربي: تراثًا، وترجمةً، وإبداعًا، وتأثيرًا في الأدب العالمي أيضًا.

يقول الدكتور طه حسين في تصديره لطبعة مكتبة المعارف لكليلة ودمنة التي كتبها في القاهرة في ٥ إبريل سنة ١٩٤١م: "ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس، ولغة العرب، وهو من هذه الناحية رمزٌ صادقٌ دقيقٌ لمعنًى سامٍ جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التي تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أمم الشرق على اختلافها، والتي حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيامَ كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة في حياة الأمم والشعوب، والتي نُريد الآن أن نردَّ إليها قوتها الأولى وجمالها القديم."[1]

"وهناك اتفاق بين الدارسين على أن الكتاب يعتبر من أبرز معالم الأدب العربي في ذلك الفن الذي يقدم الحكايات والنصائح على ألسنة الحيوان، وهو ما يسمى في اللغات الأوربية باسم الخرافة *Fables*."[2]

"ولما كانت الحكايات الخرافية في الأصل مجموعة من الأخبار تتصل بتجارب الإنسانية منذ قديم، فقد حرص الناس على الاحتفاظ بها ونقلها بالرواية –غير المدونة– عبر الأجيال، ومن هنا صارت أهم أنواع التراث الشعبي...

إن الحكاية الخرافية لا تعتمد الحدث أساسًا لها، وإنما تعتمد البطل، وهي تختار من الأحداث ما يلقي الضوء على شخصيته ويؤثر في حركته، هذا مع امتلائها بالأمور التي لا تقع في عالمنا، ومن هذه النقطة دخلت أقاصيص الحيوان مجال

الحكايات الخرافية، ونقلت عن اليونان إلى اللاتينية باسم فابولات *Fabula*، وكان الأساس فيها مغراها العميق برغم تفككها وبعدها على المنطق المعروف."[3]

وارتباط الحكايات الخرافيّة بقصص الحيوان هو ما أدخلها أدب الأطفال بقوة؛ فلم تقف في دائرة الأدب الرمزي المحض؛ حيث "تبقى الخرافات نوعًا مرتبطًا بأدب الأطفال، وتعود سردياتها، المرة تلو المرة، إلى القصص المحورية في حياة الطفولة: تعلم القراءة والكتابة، وتعلم كيفية إدخال السرور على الأهل والاحتيال عليهم، وتعلم كيفية شق درب أخلاقي في وسط الإغراءات...

ومهما كان الغرض الذي وضعه الكبار، فهي تبقى محور قراءة الأطفال. وإضافة إلى أخلاقها المحلية، ونصائحها الخاصة، فإن الخرافات تعلِّم أفكارًا عن التأليف، ومبادئ حول جمهور مستمع وأمثلة من حسن التصرف الكلامي... وباختصار، تعلم الأدب نفسه."[4]

وليس أدلّ على أن لكليلة ودمنة حظًّا وافرًا في أدب الأطفال من عرض عبد الله بن المقفّع نفسه للكتاب في مقدمته إذ يقول:

" هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث، التي التمسوا بها أبلغَ ما يجدون من القول، في النحو الذي أرادوا، ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقَل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحِيَل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العِلل، فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخَّصوا فيه من بليغ الكلام ومُتقَنه على أفواه الطير والبهائم والسباع؛ فاجتمع لهم من ذلك أمران: أمَّا هُم فوجَدوا مُتصرَّفًا في القول، وشِعابًا يأخذون فيها، وأمَّا هو فجمع لهوًا وحكمةً، فاجتباه الحُكماء لحكمته، والسخفاء لِلَهْوِه، **وأمَّا المُتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشِطوا لعلمه، وخفَّ عليهم حِفْظُه. فإذا احتنك الحدثُ واجتمع له أمرُه، وثاب إليه عقله، وتدبَّر ما كان حَفِظ منه وما وعاه في نفسه، وهو لا يدري ما هو، عَرَف أنه قد ظفر من ذلك بكنوزٍ عظام؛ فكان كالرجل يُدرِك فيجدُ أباه قد كنز له من الذهب**

والفضة، واعتقد له ما استغنى به عن استقبال السعي والطلب، ولم يكن –إذ كثرت صنوف أصول العلم ثم تفرعت فروعها– بدٌّ من أن تكثُر العلل التي تجري عليها أقاويل العلماء."[5]

وهذا المعنى هو ما سطّره أحمد شوقي في مقدمته لديوانه حين تحدث عن محاكاته لحكايات لافونتين، وأنه كان يقرأ ما يكتبه شعرًا على الأطفال؛ لكي يعرف مدى أنسهم به، فقال: "وجربتُ خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير... فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين، وأقرأ عليهم شيئًا منها فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه، ويضحكون من أكثره، وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظوماتٍ قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم."[6]

ومما هيّأ لكتاب "كليلة ودمنة" أن يتبوأ هذه المكانة، ويعدّ في كثير من قصصه أدبًا للأطفال إلى جانب كونه أدبًا رمزيًّا أنه "للنص الخرافي المروي على ألسنة الحيوان والطير في كتاب كليلة ودمنة، مضمونات أخلاقية واجتماعية وسياسية، ويعبر النص عن فلسفة الأخلاق في شكل حكائي قصصي، يخلص هذه الرؤية الأخلاقية من التصورات المجردة، وهي إلى ذلك رؤية أخلاقية إيجابية، تزكي الخير والفضيلة، وتشجب الشر والرذيلة، وتتنوع في هذه النصوص مضمونات الحياة الاجتماعية تنوعًا يفضي في نهاية الأمر إلى الجانب الأخلاقي الذي يتمثل في التوجيه والنصح وإسداء الموعظة الحسنة في قالب قصصي وشكل حدثي تتعشقه النفوس، وكذلك يبدو المضمون السياسي وما يدور عليه من وضع لآداب السلطة والحكم مصوغا في سياق أخلاقي، روعي في تقديمه الحكائي، أن يقدم أنماطًا من الخير وأنماطًا من الشر، أما الخير والفضيلة، فللحث عليهما، وتحبيبهما إلى القلوب،

وأما الشر والرذيلة وإخراجهما في صورة منفرة، فلبيان ما ينطويان عليه من قبح مستبشع، تنفر منه الطبائع الزاكية والنفوس للحكاية الأصلية الراضية المرضية...

وينبئ البناء الفني للمضمون أن الأمثولات الحكائية أولية وثانوية استوفت عناصر الحكي الجوهرية من أحداث ومواقف، وسرد وحوار وشخوص، وهي بجملتها مصبوبة في قوالب مجازية، تعول على لعبة الأقنعة المستعارة من عوالم الطير والحيوان."[7]

هذا "وقد ترك كتاب "كليلة ودمنة" بصماته على كثير من الأعمال الأدبية العالمية، وكانت النسخة العربية التي ترجمها ابن المقفع (ت142هـ/ 759م) مثار دراسات وأخذ ورد...

ويقال في أصل ذلك الكتاب إن العالم الفارسي بَرْزَوَيْه كان مولعًا بالحكمة والعلم، وكان مقربا من كسرى أنوشروان، فقرأ في كتاب الهنود أن لديهم نباتًا ينثر على الميت فيتكلم في الحال، فارتحل إلى الهند بتشجيع من كسرى وظل يبحث ويتقصى إلى أن عرف أن النبات المقصود هو رمز لكتاب كليلة ودمنة" الموجود لدى الراجا حاكم الهند."[8]

ويكفي أن نطالع هذه اللوحة التخطيطية المأخوذة عن فلكنر لتراجم كليلة ودمنة التي قدّمها الدكتور عبد الوهاب عزام محقق الكتاب؛ لندرك أثر هذا الكتاب الخالد في تراث الإنسانية، وهذه هي اللوحة:[9]

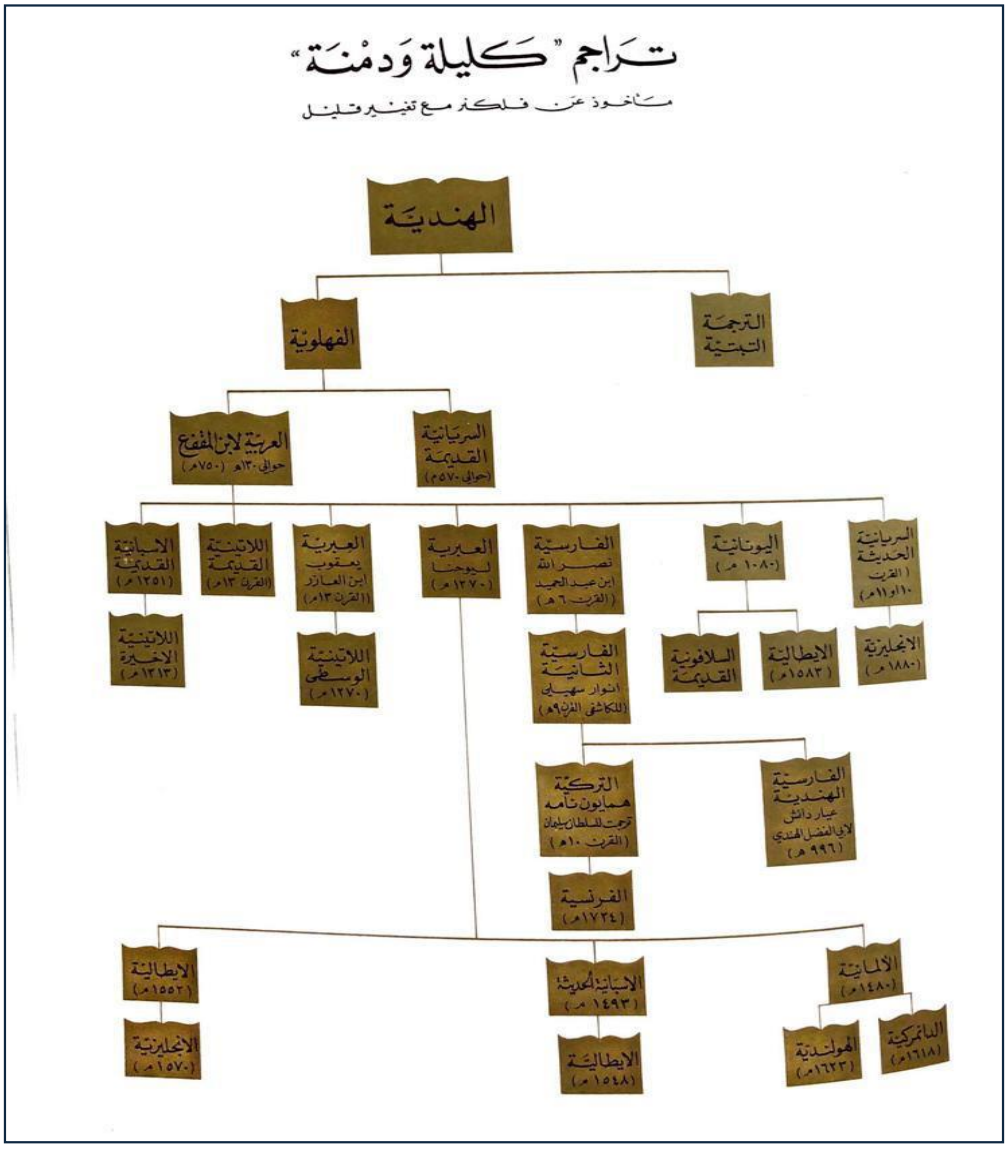

"ولم يكد هذا الكتاب يعرف في أوربا حتى اعتبر المثل الأعلى لكتب المواعظ التي تلقى على ألسنة الحيوان أو الطير...

ومن أشهر قصص كليلة ودمنة وأكثرها شيوعًا في الآداب الأوربية قصة "الناسك الذي سكب نخبي السمن والعسل على رأسه"، وهي التي نقلها بعد ذلك خوان مانويل في مجموعة مواعظ (الكونت لوكانور)، واشتهرت على يد لافونتين الذي اتخذ

منها مادة قصته *La Perrette*، وما زالت تتناقل في الأدب المكتوب للأطفال باسم «اللبانة» التي أسرفت في خيالاتها وأوهامها حتى سكبت على رأسها ما كانت تحمله من لبن."[10]

وتشير الدراسات إلى أن أول ترجمة مباشرة لكليلة ودمنة إلى لغة أوربية كانت إلى اللغة الإسبانية "بتكليف من الأمير ألفونسو عام 1251م، أي قبل أربعة وثمانين سنة من تأليف "دون خوان مانويل" لكتاب (الكوندي لوكانور)..."[11]

ودون خوان مانويل المولود في إسكالونا عام 1282م، والمتوفي في قرطبة عام 1348م، "عاشق لكل ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وبشكل خاص الأدب الذي كان يقدره ويرى فيه حكمة تعكس فكر هؤلاء الذين أقاموا تلك الحضارة الباهرة في أوربا..."[12]

ولعلّها السنة الكونية التي ينتصر فيها المهزوم عسكريًّا انتصارًا ثقافيًّا وحضاريًّا، فيقلد الغالبُ المغلوبَ، مثلما حدث للأدب الروماني حين تأثر بالأدب اليوناني، فبالرغم من انتصار الرومان على اليونان سنة 146 ق.م، فقد نهل المنتصرون من حضارة المغلوبين، وقاموا بمحاكاة نماذج أدبهم العليا.

"وكليلة ودمنة لا بد أن يكون قد وقع في يد خوان مانويل، ورآه حسنًا... وأمر بضمّه إلى كتابه... ضمًّا إطاريًّا، آخذًا بعض الحكايات منه."[13]

لذا كان دون خوان مانويل يقفو أثر ابن المقفع على نحو ما سنرى في الحكايات موضع الدراسة.

وعلى أية حال، فإنه ليس من غرض الدراسة إثبات التأثير والتأثر بين الكتابين، فقد كفانا مئونة ذلك دراسات سابقة رائدة.[14]

ونحن نهدف من وراء هذا البحث إلى الوقوف عند حكايات كليلة ودمنة التي أثرت في الكوندي لوكانور لنرصد أوجه الاتفاق والافتراق بينهما من ناحية، ولنقف

عبر آليات التحليل النقديّ على جسر الالتقاء الواصل بين أدب الأطفال والأدب المقارن.

وسيتناول الدرس بالتحليل المقارن الحكايات الثلاث من كليلة ودمنة التي ظهر تأثيرها بقوة في الكوندي لوكانور، وهي بترتيب أبوابها في كليلة ودمنة كما يأتي:

1- حكاية (**الأسد والثور**)، وهي التي ظهرت في الحكاية الثانية والعشرين من الكوندي لوكانور (*Ejemplo XXII*): بعنوان (**ما حدث للأسد مع الثور**).

2- حكاية (**البوم والغربان**)، وهي ما كان لها صداها في الحكاية التاسعة عشرة (*Ejemplo XIX*): (**ما حدث للغربان مع البوم**).

3- حكاية (**الناسك وابن عرس**)، وهي ما بدا تأثيرها واضحًا في الحكاية السابعة (*Ejemplo VII*): (**ما حدث لدونيا تروخانا**).

وسيكون منهجنا هو أن نذكر الحكاية العربية في كليلة ودمنة ملخصة، ثم نتبعها بالنص الأصلي الإسباني من الحكاية المشابهة لها من الكوندي لوكانور، ثم نردفها بالترجمة العربية، ثم التحليل المقارن للحكايتين، وذلك على ثلاثة مباحث وفقًا لكل حكاية.

وبذلك تقدم هذه الدراسة النظرة المتأنية الفاحصة –بعدما كانت شذرات متناثرة ورؤى عاجلة فرضتها طبيعة الدراسات السابقة– لحكايات العملين باعتبارها مثالا جيدًا لأدب الأطفال بَلْهَ الأدب الرمزي من ناحية، والأدب المقارن من ناحية أخرى في التراثين العربي والأجنبي.

المبحث الأول

حكاية الأسد والثور[15]

نعرض الآن اختصارًا لحكاية الأسد والثور كما وردت في كليلة ودمنة، ثم نتبعها بقرينتها من الكوندي لوكانور، ثم التحليل المقارن للحكايتين:

"قال دَبشَليم مَلك الهند لبَيْدَبا رأس فلاسفته: اضرب لي مثل الرجُلين المتحابَّينِ يقطعُ بينهما الكذوب الخئون ويحملُهما على العداوة والشنآن.

قال بيدبا الفيلسوف: إذا ابتليَ الرجُلان المُتحابَّان بأن يَدخل بينهما الخئون الكذوب تقاطَعا وتدابَرا، وفَسَد ما بينهما من المودة، ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دَستابَندَ تاجر مُكثِر، وكان له بنون، فلمَّا أدركوا أسرعوا في مال أبيهم، ولم يحترفوا حِرفة تَرُدُّ عليه وعليهم. فَلامَهُم أبوهم ووعظهم، فكان من عظته لهم أنه قال: يا بَنِيَّ، إنَّ صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لا يُدركها إلا بأربعة أشياء: أمَّا الثلاثة التي يطلُب، فالسعة في المعيشة، والمنزلةُ في الناس، والزاد إلى الآخرة، وأمَّا الأربعة التي يحتاج إليها في دَرَكها، فاكتسابُ المال من معروف وجوهه، وحُسنُ القيام عليه، والتثمير له بعد اكتسابه، وإنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضي الأهل والإخوان، ويعود عليه في الآخرة، ثم التوقِّي لجميع الآفات بجُهده. فمن أضاع هذه الخلال الأربَع لم يُدرِك ما أراد؛ لأنه إن هو لم يكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به، وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحكِم تقديره أوشك أن ينفَد، فإذا هو ليس له شيء، وإن هو وضعه ولم يُثَمِّره لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سرعة النَّفاد، كالكُحل الذي لا يُؤخذ منه إلا مثلُ الغُبار ثم هو سريع الفَناء، ثم إن كانت نفقته في غير مواضِع الحقوق اكتسب المذمَّة وصار إلى عواقب الندامة، وإن هو اكتسب وأصلح ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه كان كمن يُعَدُّ فقيرًا لا مال له، ثم لا يمنعُ ذلك ماله من أن يُفارقه ويذهب حيث لا يُريد بالمقادير والعلل؛ كالمكان الذي لا تزال المياه تنصبُّ إليه؛ فإن لم يكن له مفيض ومخرج يخرج

منه بالقدر الذي ينبغي تحلَّب وسال من نواحٍ كثيرة، وربما انبثق البثق الذي لا يغادر قطرة وذهب الماء ضياعًا. ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم، وانطلق كبيرهم متوجِّهًا بتجارة له إلى أرض يُقال لها مَثور، فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عَجَلة يجرُّها ثوران يُدعى أحدهما شَنْزَبَة والآخر نَنْدَبَة، فوَحِل شَنْزَبَة في ذلك الوحل، فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعد ما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة، وخلَّف التاجر عنده رجُلًا وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد أبَل وصلَح لَحِقه به، فلمَّا كان من غدِ ذلك اليوم بَرِم الأجير بمكانه، وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه قد مات.

(مثل الرجل الهارب من الذئب)

وإن شَنْزَبَة انتعش بعدما فارقه الرجل، فلم يزل يدِبُّ حتى أتى مرجًا خصيبًا كثير الماء والكلأ؛ لِما قُضيَ أن يُصيبه في ذلك المكان من العَرَض الذي لم يكن ليُخطئه، فإنهم يزعمون أنَّ رجلًا كان يجرُّ خشبًا فقصده ذئب ليأكله، فلم يفطن حتى دنا منه، فلمَّا رآه اشتد وجله وخرج هاربًا نحو قرية على شاطئ نهر، فلمَّا انتهى إلى النَّهر، وجد عليه قنطرة منكسرة، ورَهِقه الذئب، فقال: كيف أصنَعُ؟ الذئب يتلوني، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، وأنا لا أحُسن السباحة، غير أن الأحرز أن أرمي بنفسي في الماء، فلمَّا وقع فيه رآه أهل القرية، فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة، ثم أتاهم به، فتساند إلى حائط، فلما أفاق حدَّثهم بما لقي، وعِظَم هول ما خلَّصه لله منه، فبينما هو على ذلك إذ تهدَّم عليه الحائط فقتله.

ثم إن شنزبة لم يلبث أن عَكِد وشحُم وترَّ وجعل يحُكُّ بقرنيه الأرض ويخور، ويرفع صوته بالخوار، وكان بقربه أسَد يُقال له بِنكلة، وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك، وكان مزهُوًّا متكبِّرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، وإنَّ ذلك الأسد لمَّا سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خُواره، رُعِب منه، وكَرِه أن يفطن لذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه.

وكان فيما معه ابنا آوى، يُقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة، وكانا ذَوَيْ دهاءٍ وأدبٍ، وكان دمنة أشرهما نفسًا، وأبعدَهما همَّة، وأقلَّهما رضًا بحاله، ولم يكن الأسدُ عرفهما، فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الملك مقيمًا في مكانه لا يتحوَّل ولا ينشَط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأنُك والمسألة عمَّا ليس لك ولا يعنيك؟ أمَّا نحن فحالنا حالُ صِدق، ونحنُ على باب الملك واجدون ما نأكل، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك وما يكون من أمورهم، فاسكتْ عن هذا، واعلم أنَّه من تكلف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

(مثل القرد والنجار)

قال كليلة: زعموا أنَّ قردًا رأى نجَّارًا يشقُّ خشبة على وتدين راكبًا عليها كالأسُوار على الفَرَس، وكلما شقَّ منها ذراعًا أدخل فيها وتدًا، وأنَّ النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قِبَل ذلك الوتد، وتدلَّت خُصيتاه في الشق، فلما نزع الوتد انضمَّت الخشبة على خُصيتيه، فخرَّ مغشيًّا عليه، وجاء النَّجار فكان ما لقيَ منه من الضرب أشدَّ مما مرَّ به أضعافًا كثيرة.

قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، وسمعتُ المثل الذي ضربتَ، ولكن اعلم أنَّه ليس كلُّ من يدنو من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، فإنَّ البطن يُحشى بكل مكان، ولكنه يلتمس بالقرب منهم أن يَسُرَّ الصديق ويسوءَ العدو، فأدنأ ألناس وأضعفهم مُروءةً الذين يرضون بالقليل ويفرحون به، كالكلب الجائع الذي يُصيب عظمًا يابسًا فيفرح به، فأمَّا أهل المروءة والفضل فلا يُغنيهم القليلُ ولا يفرحون به دون أن يَسمُوا إلى ما هُم له أهل؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى العَيْر تركها وأخذه؛ أوَلَا ترى أنَّ الكلب يُبَصبِص بذنَبِه حتى تُلقى إليه الكِسرة، وأنَّ الفيل المغتلم يعرف فضل نفسه، فإذا قُدِّم إليه علفه مكرَّمًا لم يأكله حتى يُمسح رأسه ويُتملَّق؟ فمن عاش ما عاش غير

خامل المنزلة، ذا فضل على نفسه وأصحابه، فهو –وإن قلَّ عمره– طويلُ العُمُر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق وقِلَّة خير على نفسه وأصحابه، فهو –وإن طال عمره– قصير العمر، فإنه يُقال: إنَّ البائس من طال عمره فيضُرِّ، وقيل: لِيُعَدَّ من البقر والغَنَم من لم تكن هِمَّته إلا بطنه وفرجه.

قال كليلة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فراجع عقلك، واعلم أنَّ لكل إنسان منزلةً وقدرًا، فإذا كان في منزلته التي هو فيها مُكتفيًا متماسكَ الحال في أهل طبقته كان حقيقًا أن يقنع ويَرضَى، وليس لنا من المنزلة ما نسخط له حالنا التي نحن عليها...

أمَّا إذا كان هذا من رأيك فإني أحذِّرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السلطان خطرًا عظيمًا، وقد قالت العُلماء: أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وإنما شبَّه العلماء السلطانَ بالجبَل الوعْر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدِن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمُقامُ فيه أشدُّ وأهول.

قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرتَ وفهمتُه، ولكني أعرف أنَّ من لم يركب الأهوال لم ينَلِ الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلَّه أن يبلُغ منه حاجته مخافة لما لعله يتوقاه ويُشفق منه، فليس ببالغ جسيمًا، وقد قيل في أمور لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة وعِظَم خَطَر، منها عَمَلُ السلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو، وقيل أيضًا: لا ينبغي للرَّجل ذي المروءة أن يُرى إلَّا في مكانين، ولا يليق به غيرُهما: إمَّا مع الملوك مُكرَّمًا، وإمَّا مع النُّسَّاك متبتلًا، كالفيل الذي إنما بهاؤه وجماله في مكانين: إما في البرِّيَّة وحشيًّا، وإما مَركبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إنَّ دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلَّم عليه، فقال الأسد لقرابينه: مَن هذا؟ قالوا: ابن فلان، قال الأسد: قد كنت أعرف أباه، ثم قال له: أين كنت تكون؟

قال دمنة: لم أزل بباب الملك مُرابطًا رجاء أن يحضُر أمرٌ أعينُ الملك فيه برأيي ونفسي، فإنَّ باب الملك يكثُر فيه الأمور التي ربما احْتِيج فيها إلى من لا نباهة له، وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره، فإنَّ العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حكِّ أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حَرِيٌّ بأن يكون ذلك عنده وينتفع به.

فلمَّا سَمِعَ الأسد كلامَ دمنة أعجبه واستظرفه، ورجا أن يكون عنده نصيحةٌ ورأيٌ، فأقبل على قرابينه، فقال لهم: إنَّ الرجل ذا النُّبل والفضل لَيَكُونُ خاملَ الذِّكر، غامض الأمر، فتأبى مروءته إلا أن يظهر ويستبين، كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلَّا ضياءً وارتفاعًا...

فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به، قال: إني قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ قال له الأسد، وكَرِه أن يعلم منه دمنةُ جُبنًا: لم يكن ذلك لبأس.

فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خُوارًا شديدًا، فهيَّج الأسدَ على أن يُخبِر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي تسمع، ما أدري ما هو؟ غير أنَّه خليقٌ أن تكون الجُثَّة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان، قال دمنة: هل رابَ الملكَ شيٌ غيرُ هذا؟ قال الأسد: لم يكن غير هذا، قال دمنة: ليس الملكُ بحقيقٍ أن يبلغ منه هذا الصوت أن يدع مكانه، فإن السكْر الضعيف آفتُه الماء، والشرفَ آفتُه الصَّلَف، والمودَةَ آفتُها النميمة، والقلب الضعيف آفتُه الصوت والجلبة، وفي بعض الأمثال بيانُ أنه ليس كلُّ الأصوات تُهاب، قال الأسد: وما ذلك المثل؟ قال دمنة:

(مثل الثعلب والطّبل)

زعموا أن ثعلبًا جائعًا مرَّ بأجَمةٍ فيها طبل معلق في شجرة، فهبَّت الريح فجعلت قُضبان الشجرة تقرع ذلك الطبل فيصوِّت صوتًا شديدًا، فسمع الثعلبُ ذلك الصوت فتوجه إليه حيث أتاه، فلما رآه ضخمًا ظنَّ أن ذلك لكثرة شحمه ولحمه، فعالجه حتى شقَّه، فلما رآه أجوف قال: ما أدري، لعل أفسل الأشياء أعظمها جثة وأشدُّها صوتًا...

فلما فصل دمنة من عند الأسد فكَّر الأسد في أمره، فندِم على إرساله، وقال في نفسه: ما أصبتُ بائتماني دمنة على ما ائتمنته، ووجَّهته فيه...

فلما دخل عليه دمنة، قال له الأسد: ما صنعتَ وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثورًا، وهو صاحب الصوت الذي سمعتَ، قال الأسد: فما حاله وشدته؟ قال: لا شدةَ له، فقد دنوتُ منه وحاورته محاورة الأكْفَاء، فلم يستطع لي شيئًا. فقال الأسد: لا يغرَّنك ذلك منه، ولا تضعنَّ ذلك على الضعف، فإنَّ الريح الشديدة لا تضُرُّ بصغير الحشيش ولا تحطمه وهي تحطم الشجر، وكذلك الصناديد إنما يصمد بعضها لبعض. قال دمنة: لا يهابنَّ الملك أمره ولا يُكبِرَن في صدره شيئًا منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبدًا سامعًا مطيعًا، ففرح الأسد بذلك وقال له: دونَك.

ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شنزبة، فقال له غير هائب ولا مُتَعْتِع: إنَّ الأسد أرسلني إليك لآتيه بك، وأمرني إن أنت عجَّلت الإقبال عليه طائعًا أن أؤمِّنك على نفسك وما سلَف منك من الذنب في التأخير عنه والترك للقائه، وإن تأخرت أن أعجِّل الرجعة إليه فأخبره بذلك، قال شنزبة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ، وأين هو؟ قال دمنة: هو ملك السِّباع، ومعه جُند كثيرٌ منهم، فرُعِب الثور من ذلك، وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهدًا، أو أخذتَ لي منه الأمان أقبلتُ معك، فأعطاه دمنة ما سأل من ذلك.

ثم أقبلا جميعًا حتى دخلا على الأسد، فأحسنَ الأسدُ مسألة شنزبة، وألطفه، وقال له: متى قدمتَ هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟ فقصَّ عليه أمره، فقال له الأسد: الزمني، فإني مُكرِمك ومحسِنٌ إليك، فدعا له شنزبة وأثنى عليه.

ثم إنَّ الأسد قرَّب شنزبة وأدناه وكرَّمه، وآنس منه رأيًا وعقلًا، فائتمنه على أسراره وشاوره في أموره، ولم تزده الأيام إلَّا إعجابًا به ورغبةً فيه وتقريبًا له، حتى صار أخصَّ أصحابه عنده منزلةً؛ فلمَّا رأى دمنة أنَّ الملك قد استخصَّ شنزبة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحبُ رأيه وخَلَواته وأنُسه ولهوه، اشتدَّ ذلك عليه، فشكا ذلك إلى كليلة أخيه وقال: ألَا تَعجَب لعجز رأيي وصنيعي بنفسي، ونظري فيما ينفع الأسد، وإغفالي أمر نفسي، حتى جلبت ثورًا غلبني على منزلتي؟ قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسكَ..."

وهنا يسرد كليلة لدمنة أحداثًا مرّت بالناسك مغزاها أن المرء يؤتى من قبل نفسه، كما أتي هو من جرّاء حيلته ودهائه.

"قال كليلة لدمنة: وأنت أيضًا فعلت ذلك بنفسك، قال دمنة: نعم! ما ضرَّني غير نفسي، ولكن ما الحيلة؟ قال كليلة: بل أخبرني أنت عن رأيك، قال دمنة: أمَّا أنا فلستُ ألتمس أن تزداد منزلتي فوق ما كنت، ولكني أرُيد أن تعود إلى ما كانت عليه، فإنَّ خِلالًا ثلاثًا المرءُ حقيقٌ بالتفكُّر فيها والاحتيال لها: ما يمضي من الضرِّ والنفع بأن يحترس من الضرِّ الذي أصابه لئلَّا يعود إليه، ويرفق في المحبوب طلب مراجعته، وما هو مُقيم فيه من ذلك فيستوثق مما يوافقه ويهرب مما يُخالفه، وما هو منتظِر له فيطلب المرجو ويلتجئ من المحذور بالاستعداد لما يرجو أو يخاف...

قال كليلة: ما أرى على الأسد في شنزبة مضرَّة ولا منقصة ولا شينًا، قال دمنة: إنَّ السلطان إنما يؤتى من قِبَل سِتِّ خلال: الحِرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخُرق. فأمَّا الحرمان فهو أن يَفقِد الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، أو يُبعد بعض من هو كذلك، وأمَّا الفتنة فهي تحزُّب الناس

ووقوع التحارب بينهم، وأمَّا الهوى فهو الإغرام بالنِّساء أو الحديث والشرب والصَّيد وما أشبه ذلك، وأمَّا الفظاظة فالإفراط في الشدة حتى يُبتلى اللسان بالشتم واليدُ بالبطش والضرب، وأمَّا الزمان فهو ما يُصيب الناس من القحط والموت ونقص الثمرات وأشباه ذلك، وأمَّا الخُرق فإعمال الشدَّة في موضع اللين، والرفق في مكان الغلظة.

وإنَّ الأسد قد أغرِم بشنزبة إغرامًا شديدًا، فهو خليقٌ أن يُزرِيَ به ويشينه. قال كليلة: وكيف تُطيق الثور وهو أشدُّ منك، وأكرم على الأسد، وأحسن منزلةً، وأكثرُ أصدقاء وأعوانًا؟ قال دمنة: لا تنظرنَّ إلى صِغَري وضعفي، فإنَّ الأمُور ليست بالقوة والعِظَم، ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثيرٌ من الأقوياء، أَوَ لم يبلغك أنَّ غُرابًا احتال لأسْوَد حتى قتله؟ ...

وهكذا تسير الحكاية الخرافية على ذلك النمط من التفريع الحكائي عند كل موقف من المواقف أو مشهد من مشاهد القصة، حتى تصل إلى نجاح دمنة أن يؤلب الأسد على الثور بسعيه بالوشاية والإفك بينهما بهذه الطريقة التي ترويها الحكاية:

"ثم إنَّ دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا، ثم أتاه على خلوةٍ متحازنًا، فقال له الأسد: ما حبسك عني، منذ مدة لم أرَك، أذلك لخير؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن، قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام فظيع، قال الأسد: فأخبرني به، قال دمنة: إنه ما كان من كلام يكرهه سامعه، لم يكد يتشجَّع عليه قائله –وإن كان ناصحًا مشفقًا– إلا أن يثق بعقل المقول له، وإلا كان القائل خَرِقًا، فإنه إذا كان المقول له ذلك عاقلًا احتمله واستمعه وعرف ما فيه؛ لأنه ما كان فيه من نفعٍ فإنما هو للسامع، وأمَّا قائله فلا ينتفع به، بل قلَّما يسلم من ضرره، وأنت أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، ورُجحان في الحلم، فأنا متشجِّع على أن أخبرك بما تكره، وأثقُ بأنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي، وإنه ليعرض لي أنك غير مصدِّق بما أنا مُخبِرك به، ولكني إذا نظرت فذكرتُ أن أنفسنا — معشر السباع — مُعلقةٌ بنفسك، لم أجد بُدًّا من أداء الحق الذي يلزمني لك، وإن أنت لم تَسَلْني عنه، وخِفتُ

ألا تقبله مني، فإنه من كتم السلطان نصيحته، والأطباءَ مرضَه، والإخوانَ رأيَه، كان قد غشَّ نفسه. فقال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَّثني الأمينُ الصادق عندي أنَّ شنزبة خلا برءوس جُندك فقال لهم: قد عجَمتُ الأسد، وبَلَوتُ رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنه كائن لي وله شأن، وأنه لما بلغني هذا عرفت أن شنزبة خئونٌ غادر، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظيرَ نفسك، فهو اليومَ يظنُّ أنه مثلك، وأنك إن زُلتَ عن مكانك صار له مُلكك، فهو لا يَدَعُ جُهدًا، فإنه كان يقال: إذا عَرَف الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأي والمنزلة والهيبة والمال والتبَع فليصرَعْه، فإنه إن لم يفعل كان هو المصروع، وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور وأبلغ فيها رأيًا، وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تأمنُ أن يفوتك ثم لا تستدركه، فإنه كان يُقال: الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز، فأحد الحازمَين من إذا نزل به البلاء لم يَدهَش، ولم يذهب قلبه شَعاعًا، ولم يَعْيَ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة، وأحزَم من هذا المتقدم ذو العُدَّة، الذي يعرف الأمر مبتدَأً قبل وقوعه، فيُعظِمه إعظامه، ويحتالُ له حيلته كأنه قد لزمه، فيحسمُ الداء قبل أن يُبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه، وأمَّا العاجز فهو الذي لا يزال في التردد وتمنِّي الأمانيّ حتى يُهلِك نفسه، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ السمكات الثلاث...

قال دمنة: فلا يدخلَنَّ عليك شنزبة إلَّا وأنت مستعدٌّ له، واحذر أن يصيب منك غِرَّةٌ، فإني لا أحسبك لو قد نظرتَ إليه حين يدخل عليك إلَّا ستعرف أنه قد همَّ بعظيمةٍ، ومن علامات ذلك أن ترى لونَه مُتغيّرًا وأوصاله ترتعد، وهو يلتفت يمينًا وشمالًا، ويُهيئ قرنيه كأنه يهمُّ بالنطح. قال الأسد: سآخذ بمشورتك في ذلك، ولئن أنا رأيتُه على ما وصفتَ فليس في أمره عندي شك.

فلمَّا فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور، وأوقع في نفسه الذي أراد، همَّ بأن يذهب إلى شنزبة ليُغريه به ويَحمله عليه، وأحبَّ أن يكون ذلك بأمر الأسد وعن علمه، لئلا يبلُغه ذلك عن غيره فيتَّهمه فيه، فقال: ألا آتِي شنزبة فأنظرَ إلى حاله

وأسمعَ كلامه لعلّي أطَّلع على بعض أمره، فأعُلِم الملك به؟ قال الأسد: شأنُك وما تريده، ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شنزبة فدخل عليه كالحزين المكتئب، فرَّحب به شنزبة، وقال: لم أرَك منذ أيام، فما حَبَسك؟ أهو خير؟ فقال دمنة: ومتى كان من أهل الخير من لا يملك نفسه، ومن إنما أمرُه بيد غيره، ممن لا يُوثق به، ومَن لا ينفكُّ في خوف منه، حتى ما مِن ساعةٍ يأمنُه فيها على نفسه؟ قال شنزبة: فما ذلك؟ قال دمنة: حَدَث أمر، فمَن ذا يغلِب القَدَر؟ ومَن بلغ في الدنيا جسيمًا فلم يَبطَر، أو اتَّبع الهوى فلم يَعثر، أو جاور النساء فلم يفتَتِنْ، أو طلب إلى اللئام فلم يُهَنْ ويُحرم، أو واصل الأشرار فسلم، أو صاحَبَ السلطانَ فدام له منه الإحسان؟ لقد صدقَ الذي يقول: إنما مَثَلُهم –في قِلَّة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفُسهم عمَّن فَقَدوا منهم– مَثَلُ المكاري كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه. فقال شنزبة: أسمع لك كلامًا أعرف به أنه قد رابك من الأسد شيء، قال دمنة: ذلك كذلك، ولكن ليس في أمر نفسي، وقد تعرِف حقَّك عليَّ، ووُدَّ ما بيني وبينك، وما كنتُ جعلتُ لك من ذِمَّتي أيامَ كان الأسد أرسلني إليك، فلم أجد بُدًّا من حِفظِك والنصيحة لك، وإطلاعك على ما أخاف فيه الهلكة عليك، قال شنزبة: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَّثني الأمينُ الصدوق أنَّ الأسد قال لبعض أصحابه: لقد أعجبَني سِمَن شنزبة، وليست بي حاجةٌ إليه، وما أراني إلا آكِلَه ومُطعِمَكم منه، فلمَّا بلغني ذلك عرفتُ كفره وغدره، وأقبلت إليك لأحذِّرك لتحتال في نجاتك في رِفق. فلمَّا سَمِعَ شنزبة كلام دمنة، وتذكَّر ما كان جعل له، وفكَّر في أمر الأسد، ظنَّ أنه قد صدَقه، فاهتمَّ وقال: ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذُنب إليه، ولا إلى أحدٍ من جُنده، وأظنُّه قد حُمِل عليَّ، وشُبِّه عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوءٍ، جرَّب وعرف منهم أشياء هي تُصدَّق عنده ما بلغه عن غيرهم، فإنَّ مُقارنة الأشرار رُبَّما أورثت أهلَها تُهمَة الأخيار، وحَمَلهم ذلك على خطأ كخطأ البطة التي رأت في الماء ضوء كوكب فحاولت أن تصيده، فلمَّا لم ترَه شيئًا تركته، حتى إذا كان عند المساء أبصرتْ فيه نونًا فحسبت أنه مِثلُ ما رأت قبله فرفضت طلبه.

فإن كان ما بلغه عني باطلًا فحقَّقه لِما اختبر من غيري، فبالحريِّ، وإن كان لم ينتهِ إليه من ذلك شيءٌ فأراد هلاكي عن غير عِلة فذلك عجب، وأعجب منه أن أكون أطلبُ رضاه وموافقته فلا يرضى، وأعجب من ذلك أن ألتمس محبَّته وأجتنب مخالفته فيغضب ويسخط، وإن كان موجِدته عن غير سبب انقطع الرجاء؛ لأنَّ العِلَّة إذا كانت المعتَبة في ورُودها كان الرِّضا في إصدارها، وهي تذهب أحيانًا وتوجد أحيانًا، والباطلُ قائم غير مفقود، وقد تذكَّرتُ فلا أعلم لي ذنبًا فيما بيني وبين الأسد –إن كان– إلا صغيرًا، ولَعَمْرِي ما يستطيع امرؤ صاحَبَ أحدًا أن يتحفَّظ حتى لا يَفرُط منه شيءٌ يكرهه، ولكنَّ الرجلَ ذا العقل والوفاء إذا سَقَط صاحبُه نظر في ذلك، وما حدُّ مَبلغه، وخطأً كان أو عمدًا، وهل في الصفح عنه مَخوف، ثم لا يؤاخذه مهما وجد إلى العفو عنه سبيلًا. فإن كان الأسدُ يعتدُّ عليَّ جُرمًا فلستُ أعرفه إلَّا أني كنتُ أخُالف عليه في بعض رأيه، فلعله ولا؟ «نعم» إذا قلت «لا» أو يقول، «لا» إذا قلت «نعم» يقول: ما جرَّأه على أن يقول أجِدُني في ذلك مخصومًا؛ لأني لم أكن أريد بذلك إلا منفعته، ولم أكن أجاهره به على رءوس جنده، ولكن أخلو به فأكلِّمه فيه وأنا هائبٌ له، وعرفت أنه من التمس الرخصة من الإخوان عند المشاورة، والأطباء عند المرض، والفقهاء عند الشُّبهة، فقد أخطأ الرأي، وزاد في المرض، واحتمل الوِزر. فإن لم يكن هذا فعسى أن يكون من سكرات السلطان، فإنَّ منها أن يسخط على من لم يستوجب السخط، ويرضى عمَّن لم يستحق ذلك في غير أمرٍ معلوم، وكذلك قيل: قد غرَّر من لجَّج في البحر، وأشَدُّ منه مخاطرةً صاحب السلطان؛ فإنه خليقٌ –وإن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودَّة والنصيحة– أن يعثر فلا ينتعش...

فلمَّا فرغ دمنة من تحميل الأسد على شنزبة، وشنزبة على الأسد، توجه إلى كليلة، فلما لقيه قال: إلامَ انتهى عملك الذي كنت فيه؟ فقال دمنة: يا أخي، قد تقارب نجاحه على الذي تُحب، فلا تشُكَّن في ذلك، ولا تظنَّن أنَّ الإخاء بين الأخوين ثابت إذا احتال لقطعه الأريب الرَّفيق، فانطلقا حتى أتيا الأسد في عرينه، ووافقا شنزبة قد

دخل عليه فرآه على حال ما ذكر دمنة ووصفه له، فاستيقن بالهلكة، وقال: ما صاحبُ السلطان –فيما يُتخوَّف من بوادره عندما يرقى أهلُ البغي إليه– إلَّا كمجاور الحيَّة في بيته، والأسد في عرينه، والسابح في الماء الذي فيه التماسيح لا يدري متى يهيج به بعضُهن؛ ففكَّر في ذلك وتهيَّأ لقِتاله، ونظر إليه الأسدُ فعرف ما كان دمنة ذكر له منه، فواثَبه فاقتتلا قتالًا شديدًا سالت منه الدماء بينهما.

فلما رأى كليلة ذلك قال لدمنة: أيها الفسْل! انظُر إلى حيلتك، ما أنكدها وأوخم عاقبتها! فإنك قد فضحتَ الأسد، وأهلكت شنزبة، وفرَّقت كلمة الجُند، مع ما استبان لي من خُرقك فيما ادَّعيت فيه الرفق، أوَلست تعلم أنَّ أعجَزَ الرَّأي ما كلَّف صاحبه القتال، وهو عنه غَنِي؟ وأنَّ الرجل رُبَّما أمكنَته فرصتُه في عدوه فتركها مخافةَ تعرُّض النكبة، ورجاءَ أن يقدِر على حاجته بغيرِ ذلك..."

وتنتهي حكايتنا الخرافية بمقتل الثور، وحزن الأسد عليه، وندمه على قتله، "وبصُر به دمنة، فترك مُحاورة كليلة وتقدَّم إلى الأسد، وقال: قد أظفرك الله أيُّها الملك، وأهلك عدوك، فما الذي تهتم له ويحزُنك؟ فقال الأسد: لقد أشفقتُ على قتل شنزبة لعقله وكرم خُلُقه، فقال دمنة: لا تفعلنَّ ذلك أيها الملك ولا ترحم من تخافه، فإنَّ الملك الحازم رُبَّما أبغض الرجلَ وأقصاه، ثم تكاره عليه، فقرَّبه وولاه لما يَعرفه من غَنَائه وفضله، فِعْلَ المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته ومغبَّته، ورُبَّما أحبَّ الرجلَ وأدناه ثم أهلكه واستأصله مخافة ضرِّه، كالذي تلدغ الحيَّة إصْبَعه فيقطعُها مخافةَ أن ينتشر السمُّ في جسده كله فيقتله، فلمَّا سمع الأسد ذلك منه صدَّقه وقرَّبه.

ثم قال الفيلسوف للملك: فكان في صُنع دمنة –في صِغَرِهِ وضعفه وهو من أرذل السباع وأحقرها– بالأسد والثور ما شغب به بينهما، وألَّب كل واحد منهما على صاحبه، حتى قطع وُدَّهما وإخاءهما، من الأعاجيب والعِبَر لذوي الألباب في الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهْس، والنظر فيما يزوِّقون من خديعتهم ومكرهم وسِعايتهم، وذوو العقول أحقُّ أن يتقوا كذب أولئك ويتجنبوا عطبهم، ويفحصوا عن هذه الأشياء

منهم، ثم لا يُقدِموا على شيءٍ من أقاويلهم إلا عن تثبت وضياء ونور، وأن يرفضوا كل من عَرَفوا مِثلَ ذلك منه؛ فإنه الرأيُ والحزمُ والأخذُ بأمر السعادة إن شاء الله."

إلى هنا تنتهي حكاية الأسد والثور كما وردت في (كليلة ودمنة)، والآن نعرض الحكاية كما جاءت في كتاب (الكوندي لوكانور) بلغته الإسبانية الأصلية، ثم ترجمتها إلى العربية.

Cuento XXII

Lo que sucedió al león y al toro

Hablaba otra vez el Conde Lucanor con Patronio, su consejero, y le dijo así:

-Patronio, tengo un amigo muy poderoso y muy ilustre, del que hasta ahora sólo he recibido favores, pero me dicen que no sólo he perdido su estimación sino que, además, busca motivos para venir contra mí. Por eso tengo dos grandes preocupaciones: si se levanta contra mí, me puede ser muy perjudicial; y si, por otra parte, descubre mis sospechas y mi alejamiento, él hará otro tanto, por lo cual nuestras desavenencias irán en aumento y romperemos nuestra amistad. Por la gran confianza que siempre me habéis merecido, os ruego que me aconsejéis lo más prudente para mí en este asunto.

-Señor Conde Lucanor -dijo Patronio-, para que podáis evitaros todo eso, me gustaría que supierais lo que sucedió al león y al toro.

El conde le rogó que se lo contara.

-Señor Conde Lucanor -dijo Patronio-, el león y el toro eran muy amigos y, como los dos son muy fuertes y poderosos, dominaban y sometían a los demás animales; pues el león, ayudado por el toro, reinaba sobre todos los animales que comen carne, y el toro, con la ayuda del león, lo hacía sobre todos los que comen hierba. Cuando todos los animales comprendieron que el león y el toro los dominaban por la ayuda que se prestaban el uno al otro, y que ello les producía graves daños, hablaron entre sí para ver la forma de acabar con su tiranía. Vieron que, si lograban desavenir al león y al toro, podrían romper el yugo de su dominio, por lo cual los animales rogaron a la zorra y al carnero, que eran los privados del león y del toro respectivamente, que buscasen el medio de romper su alianza. La zorra y el carnero prometieron hacer cuanto pudiesen para conseguirlo.

»La zorra, consejera del león, pidió al oso, que es el animal más fuerte y poderoso de los que comen carne después del león, que le dijera a este cómo el toro hacía ya tiempo que buscaba hacerle mucho daño, por lo cual, y aunque no fuera verdad pues se lo habían dicho hacía ya varios días, debía estar precavido.

»Lo mismo dijo el carnero, consejero del toro, al caballo, que es el animal más fuerte entre los que se alimentan de hierba después del toro.

»El oso y el caballo dieron este aviso al león y al toro, que aunque no lo creyeron del todo, pues algo sospechaban de quienes eran casi tan fuertes como ellos, creyendo que buscaban su desavenencia, no por ello dejaron de sentir cierto recelo mutuo. Por lo cual, los dos, león y toro, hablaron con la zorra y con el carnero, que eran sus privados. Estos dijeron a sus señores que quizás el oso y el caballo les habían contado aquello para engañarlos, pero no obstante les aconsejaban observar bien dichos y hechos que de allí en adelante hicieran el león y el toro, para que cada uno obrase según lo que viera en el otro.

»Al oír esto, creció la sospecha entre el león y el toro, por lo que los demás animales, viendo que aquellos empezaban a recelar el uno del otro, empezaron a propagar abiertamente sus desconfianzas, que, sin duda, eran debidas a la mala intención que cada uno guardaba contra el otro.

»La zorra y el carnero, que sólo buscaban su conveniencia como falsos consejeros y habían olvidado la lealtad que debían a sus señores, en lugar de decirles la verdad, los engañaron. Tantas veces previnieron al uno contra el otro que la amistad entre el león y el toro se trocó en mutua aversión; los animales, al verlos así enemistados, pidieron una y otra vez a sus jefes que entrasen en guerra y, aunque les daban a entender que sólo miraban por sus intereses, buscaban los propios, haciendo y consiguiendo que todo el daño cayese sobre el león y el toro.

»Así acabó esta lucha: aunque el león hizo más daño al toro, disminuyendo mucho su poder y su autoridad, salió él tan debilitado que ya nunca pudo ejercer su dominio sobre los otros animales de su especie ni sobre los de otras distintas, ni cogerlos para sí como antes. Así, dado que el león y el toro no comprendieron que, gracias a su amistad y a la ayuda que se prestaban el uno al otro, eran respetados y temidos por el resto de los animales, y porque no supieron conservar su alianza, desoyendo los malos consejos que les daban quienes querían sacudirse su yugo y conseguir, en cambio, que fueran el león y el toro los sometidos, estos quedaron tan debilitados que, si antes eran ellos señores y dominadores, luego fueron ellos los sojuzgados.

»Vos, señor Conde Lucanor, evitad que quienes os hacen sospechar de vuestro amigo consigan que rompáis con él, como hicieron los animales con el león y el toro. Por ello os aconsejo que, si ese amigo vuestro es persona leal y siempre os ha favorecido con buenas obras, dando pruebas de su lealtad, y si tenéis con él la misma confianza que con un buen hijo o con un buen hermano, no creáis nada que os digan en su contra. Por el

contrario, será mejor que le digáis las críticas que os hagan de él, con la seguridad de que os contará las que le lleguen de vos, castigando además a quienes urdan esas mentiras para que otros no se atrevan a levantar falsos testimonios. Pero si se trata de una persona que cuenta con vuestra amistad sólo por un tiempo, o por necesidad, o sólo casualmente, no hagáis ni digáis nada que pueda llevarle a pensar que sospecháis de él o que podéis retirarle vuestro favor, mas disimulad sus errores, que de ninguna manera podrá haceros tanto daño que no podáis prevenirlo con tiempo suficiente, como sería el que recibiríais si rompéis vuestra alianza por escuchar a los malos consejeros, como ocurrió en el cuento. Además, a ese amigo hacedle ver con buenas palabras cuán necesaria es la colaboración mutua y recíproca para él y para vos; así, haciéndole mercedes y favores y mostrándole vuestra buena disposición, no recelando de él sin motivo, no creyendo a los envidiosos y embusteros y demostrándole que tanto necesitáis su ayuda como él la vuestra, durará la amistad entre los dos y ninguno caerá en el error en que cayeron el león y el toro, lo que les llevó a perder todo su dominio sobre los demás animales.

Al conde le gustó mucho este consejo de Patronio, obró de acuerdo con sus enseñanzas y le fue muy bien.

Y viendo don Juan que el cuento era muy bueno, lo mandó escribir en este libro e hizo unos versos que dicen así:

Por dichos y por obras de algunos mentirosos,
no rompas tu amistad con hombres provechosos.

هذا هو النص الأصلي[16]، والآن نثبت ترجمته إلى العربية.

الحكاية الثانية والعشرون[17]

ما حدث للأسد مع الثور

"مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره فقال له:

يا باترونيو عندي صديق مشهور شديد القوة، وبالرغم من أنني حتى الآن لم أتلق منه سوى الجميل، فإنهم يقولون لي إنه ليس هكذا، وإنه يبحث لي عن وسيلة لقطع العلاقة. الأمر الذي يسبب لي قلقا شديدا، خاشيا إذا انتبه إلى أنني أشك فيه واتحفظ في التعامل معه أن يعاملني بالمثل، وهو شيء ينمي الريبة بيننا، وينتهي بنا إلى القطيعة، وللثقة التي توليها لي أرجوك أن تشير على بما يبدو لك صالحا.

أجاب باترونيو: سيدي القونت لوقانور: لكي تستطيع منع الآلام التي تنتج عن الخلاف يروق لي أن تعرف ماذا حدث للأسد والثور.

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث.

قال باترونيو: سيدى القونت كان الأسد والثور صديقين حميمين، ولأن الاثنين يتمتعان بقوة هائلة فإنهما كانا سيدى الحيوانات الأخرى، وبمساعدة الثور استطاع الأسد أن يخضع الحيوانات آكلة اللحم، وبمساعدة الأسد أخضع الثور أكلة العشب، حين رأت الحيوانات أن الأسد والثور يخضعانها بتضامنها معا، مما يسبب لها ضررا شديدا فقد تحدثت فيما بينها كيف تتخلص من قهرهما، مدركة أنها إذا استطاعت أن تحدث شقاقا بين الأسد والثور، وجاهدت الإيغار صدرهما؛ [فيمكنهم كسر نير سيطرتهما؛ لذلك توسلت الحيوانات إلى الثعلب والكبش، المقربين من الأسد والثور على التوالي، ليجدا طريقة لدحض تحالفهما][18]، فوعد كلاهما أن يفعلا ما في وسعهما.

طلبت الثعلبة وهي مستشارة الأسد من الدب وهو أقوى الحيوانات بعد الأسد من آكلة اللحوم أن يقول للأسد إنهم قالوا له منذ أيام كثيرة إن الثور يبحث عن وسيلة

تجلب الضرر ما أمكن للأسد، وبالرغم من أن هذا يمكن أن يكون كذبا فإنه يجب أخذ الحذر، وقال الكبش الكلام ذاته. وهو مستشار الثور – للحصان وهو الحيوان الأقوى بعد الثور من أكلة العشب.

حين سمع الأسد والثور هذا من الدب والحصان، وإن كانا في البداية لم يطمئنا إليه يخشيان من أنهما. وهما أهم ما في الرعية . قد قالا ذلك لإحداث الشقاق بينهما لم يستطيعا مع ذلك إضمار شيء من الريبة. لهذا تحدث الأسد مع الثعلبة، والثور مع الكبش وهما أمينا أسرارهما. فقال كلاهما إنه وإن كان من الممكن أن الدب والحصان لم يقولا الحق، فإنه ينبغي أخذ الحيطة من الآن فصاعدا من أقوال الطرف الثاني وأفعاله كي يواجها كل حدث بما يجب، حين أدركت الحيوانات أن كليهما بدأ يسترِيب من الآخر، أنشأت تتحدث إليهما دون أية حجة من أن أحدهما إذا استراب فإنه من الخشية أن يكون نيته السيئة التي يكنها في أعماق ضميره قد ظهرت.

الثعلبة والكبش –منتبهان باعتبارهما ناصحين سيئين إلى مصلحتهما– نسيا الوفاء الواجب لسيديهما؛ فمارسا خداعهما بدلا من محض النصيحة لهما، وجاهدا كثيرا في أن الصداقة التي تربط بين الأسد والثور تنقلب إلى شقاق.

وقد رأت بقية الحيوانات ذلك شددت الخناق أكثر على الزعيمين حتى دخلا في معركة تفهمها أنها لم تفكر إلا في مصلحتهما، بينما هي تبحث عن مصلحتها الخاصة، محاولة أن يقع الضرر على الاثنين معا. وفي النهاية، وبالرغم من أن الأسد الحق ضررا أكثر بالثور، فإن الأسد هزل قدره وقوته، ولم يعد يستطيع أيضا أن يمنع صاحبه من أن يهزل بطريقة لا يستطيع معها العودة إلى السيطرة على الحيوانات من فصيلته ولا من أية فصيلة أخرى ولم يستطيع التحكم كما هو الحال قبلا. وهكذا لأن الثور والأسد لم يفهما أنها بالتحالف والتضامن بينهما كانا مقدرين وسيدين على كل الحيوانات، ولأنهما لم يحتفظا بالصداقة النافعة لهما، وإغلاق آذانهما

للنصائح السيئة للمهتمين بهزالهما لنزع نيرهما؛ فقد بقيا هزيلين وبدلا من سيطرتهما على الحيوانات، خضعا هما لمن تعود الخضوع لهما.

إذن يا سيدى القونت لوقانور، احذر من أن هؤلاء الذين يزرعون الريبة في نفسك لصديقك القديم في نفسهما الهدف ذاته الذي كان لدى ناصحي الأسد والثور، لهذا أعتقد إذا كان صديقك رجلا وفيا، وتجد منه دائما أعمالا طيبة، وتثق فيه كما تثق في ابن صالح أو أخ صالح، فلا يجب أن تصغى لما يقولونه لك ضده، وقبل ذلك أنصحك أن تخبره بهذا، لكى يخبرك بدوره بما يقولونه له ضدك، ونكل بمن يدبر هذه الافتراءات حتى لا يجرءوا على العودة إلى عملها، لكن إذا كان الصديق على غير الوفاء، بل من الأصدقاء النهازين، أو من أصدقاء المنفعة، أو من الأصدقاء الوقتيين، فحاول ألا تقول ولا تعمل له شيئا لأنه يمكن أن يفهم أنك تشك فيه، ولست مستعدا لإلحاق ضرر به، بل تغاض عن أخطائه، فلا يستطيع عملها دون توقع فلست ترى ضررا قادما من بعيد مثل الذى تستقبله إذا تنازعتما بسبب ما يصل إلى أسماعكما من النصائح السيئة وأفهم هذا الصديق إنك إذا كنت محتاجا إلى مساعدته فهو محتاج منك إلى مثلها، بهذا تقدم له فضلا مقابلا له دائما بوجه حسن لا تغضب بلا سبب، ولا تعتقد أبدا في مثيري الخلافات مقنعا إياه أنه من الصالح لكما التضامن، بهذا تدوم الصداقة، ولا تقعا في الخطأ الذي وقع فيه الأسد والثور.

أعجب القونت كثيرا بالنصيحة التي قدمها له باترونيو وعمل بها، ورأى عاقبتها حسنة، ورأى دون خوان أن الحكاية جيدة فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات:

لا تفقد صديقا نافعا

بوشاية يقولها لك الكاذب"

التحليل المقارِن للحكايتين

- الإطار السردي:

يكاد الإطار الحكائي بين العملين يكون متماثلا من حيث كونه يعتمد على حوار بين اثنين أحدهما صاحب سلطة، والآخر مستشار له، وهما في (كليلة ودمنة): دبشليم ملك الهند، وبيدبا رأس فلاسفته، وهما في (الكوندي لوكانور): الكوندي لوكانور، ومستشاره ومعلمه باترونيو. "والكوندي أو الكونت لقب تشريفي يُمنح لأرقى العوائل النبيلة ذات الصلة بعلية القوم وملوكها. والعديد من الكوندات وصلوا إلى الحكم كملوك في تاريخ إسبانيا أو دول العالم الأخرى."[19]

ويتشكل إطار الحوار في العملين من طلب كل من الملك من الفيلسوف، والكوندي من المستشار نصيحة أو إبداء مشورة، فكما في حكاية الأسد والثور في كليلة ودمنة:

"قال دَبشَليم مَلك الهند لبَيْدَبا رأس فلاسفته: اضرب لي مثل الرجُلين المتحابَّينِ يقطعُ بينهما الكذوب الخئون ويحملُهما على العداوة والشنآن."

وفي الكوندي لوكانور إسهاب أكثر في حديثه حين قال:

"يا باترونيو عندي صديق مشهور شديد القوة، وبالرغم من أنني حتى الآن لم أتلق منه سوى الجميل، فإنهم يقولون لي إنه ليس هكذا، وإنه يبحث لي عن وسيلة لقطع العلاقة. الأمر الذي يسبب لي قلقا شديدا، خاشيا إذا انتبه إلى أنني أشك فيه واتحفظ في التعامل معه أن يعاملني بالمثل، وهو شيء ينمي الريبة بيننا، وينتهي بنا إلى القطيعة، وللثقة التي توليها لي أرجوك أن تشير على بما يبدو لك صالحا."

كما أن ردّ كلا المستشارين (الفيلسوف والمستشار) كان فيه توافق وتخالف بيد أن الإطار واحد.

"**قال بيدبا الفيلسوف: إذا ابتليَ الرجُلان المُتحابَّان بأن يَدخل بينهما الخئون الكذوب تقاطَعا وتدابَرا، وفَسَد ما بينهما من المودة، ومن أمثال ذلك: أنه كان بأرض دَستابَندَ تاجر مُكثِر...**" ثم يستمر في قصّ القصة.

أما في الكوندي فكان على ذلك النحو:

"**أجاب باترونيو: سيدي القونت لوقانور: لكي تستطيع منع الآلام التي تنتج عن الخلاف يروق لي أن تعرف ماذا حدث للأسد والثور.**

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث." ويبدأ المستشار في قصّ القصة.

فنلاحظ أن رد الفيلسوف في (كليلة ودمنة) لم يذكر فيه اسم الحكاية (الأسد والثور) كما هو الحال في (الكوندي لوكانور)، ففي الأولى اكتفى بقوله: "ومن أمثال ذلك..." وبدأ في سرد القصة التي تبدأ بقصة تاجر مكثر له أبناؤه يقدم لهم نصيحة عن صاحب الدنيا الذي يطلب ثلاثة أمور لا يدركها إلا بأربعة أشياء، فكانت بمثابة التمهيد للحكاية الأصلية التي تفرّعت منها، أو قل افتتاحية لها.

أما في (الكوندي لوكانور) فقد ذكر باترونيو نصًّا: "**يروق لي أن تعرف ماذا حدث للأسد والثور...**"

ويتمثل الإطار العام الموحّد في كلا العملين فيما يمكن أن نسميه السرد المركّب أو الحكي داخل الحكي، فابن المقفع وخوان مانويل يرويان ما حدث بين المتحاورين: (الملك والفيلسوف)، و(الكوندي والمستشار)، وكل من (الفيلسوف والمستشار) يتحولان إلى راويين للحكايات، وهو مرويّ عنهما من المؤلف/ الراوية الأول.

ولكن إذا كان الإطار العام واحدًا في العملين، فإن البناء الحكائي الداخلي متمايز بينهما، يتمثل في تميز كليلة ودمنة بما يمكن أن نطلق عليه (شجرة الحكايات).

- **شجرة الحكايات:**

إن أول ما يلاحظه القارئ من تمايز بين الحكايتين هو كم الثراء والتداخل السردي الناتج عن التفريع الحكائي في (كليلة ودمنة) في مقابل الاختصار والبساطة الشديدة في (الكوندي لوكانور)، فكأن ما قدّمه دون خوان هو استخلاص الحكاية الأصلية من (كليلة ودمنة) وتقديمها في ثوبها المختصر دون أي تفريع أو حكايات ثانوية تخدم خط السرد الأصلي.

فبينما خلصت الحكاية في (الكوندي لوكانور) للقصة الرئيسية (الأسد والثور) فحسب، وجدنا في المقابل ثماني عشرة حكاية فرعيّة في (كليلة ودمنة) هي الأمثال التي كان تضرب في تضاعيف السرد لاستقاء العبرة منها، وهو ما يخدم جدًّا أدب الأطفال الذي يسعى إلى إذكاء الفضائل والأخلاق عن طريق ضرب المثل بقصص فرعية.

ويشبه الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم الهيكل الحكائي لكليلة ودمنة بالصورة الكليّة المكثفة الحديثة، في حين أن البناء السردي للكوندي لوكانور أشبه بالصورة الحسية القديمة، فيقول عن الكوندي لوكانور إنه "يقفو كليلة ودمنة في بناء الحكاية القصصية، ويمكن أن نطلق عليها «حكايات الإطار» Elmarco»، وهو البناء الأساسي في كليلة ودمنة، فهو واحد قلما يتغير، وإن كانت الحكايات في كليلة ودمنة أشبه بالنسيج المعقد المتشابك الألوان والخيوط، أو الرمز المكثف الشديد الثراء كالصورة الكلية في البلاغة الحديثة، على عكس القونت لوقانور ففيها بساطة واضحة وقصر أوضح، أشبه ما يكون بالصورة الجزئية أو الاستعارة في البلاغة القديمة.

تبدأ الحكايات كلها بسؤال يوجه القونت لوقانور إلى ناصحه أو مستشاره باترونيو، فيجيب الناصح سيده من خلال حكاية، أو مثل يضربه، كذلك تبدأ الحكايات في كليلة ودمنة: أسئلة تدور بين الملك والفيلسوف، والصيغة تكاد تكون واحدة في الكتاب العربي والإسباني سؤالا وجوابا، ما عدا الحكايات الفرعية التي تشتق

من الحكاية الأصلية. وهذا يعطيها مذاقا خاصا وقيمة أدبية عالية في كليلة ودمنة."[20]

وعن علاقة الحكاية الأصلية بالحكايات الفرعية، يقول الدكتور عاطف جودة: "ومما يلاحظ ... من حيث الشكل البنائي، تدفق تيارين حكائيين: تيار حكائي أولي ذو اتجاه أفقي، يرتبط بالشخوص الجوهرية والأحداث الرئيسية، وما يتخللها من حوار، وتيارات حكائية ثانوية، تبدو بمثابة فروع وقنوات للتيار الأول، تقوم على أمثولات وحكايات، لا ترتبط بمكونات التيار الأول ارتباطًا مباشرًا، غير أنها مع ذلك تغذيه وتفيد منه في الوقت نفسه.

وتمثل العلاقة بين التيار الأول والقنوات الثانوية المتفرعة عنه في البنية الحكائية لهذا الجنس ضربًا من التركيب الجدلي تقيمه العلاقة بين الانقطاع والاتصال، والكف المؤقت للتيار الأولي، لإتاحة متجهات وقنوات جانبية، يستأنف التيار الأولي بعد الفراغ منها، وقد صيغت في شكل مفارق جامع بين الانفصال والاتصال، سيقت لتنمية الأحداث والحوار والسرد والشخصيات التي تؤلف عصب المجرى الرئيسي للحكاية الأصلية."[21]

وهذه الحكايات الفرعية –وقد أثبتنا بعضها– هي:

(مثل الرجل الهارب والذئب– مثل القرد والنجار– مثل الثعلب والطبل– مثل الناسك واللص– مثل المرأة الفاجرة وجاريتها– مثل امرأة الإسكاف وجارتها– مثل الغراب والأسود– مثل العلجوم والسرطان– مثل الأرنب والأسد– مثل السمكات الثلاث– مثل القملة والبرغوث– مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمل– مثل وكيل البحر والطيطوي– مثل السلحفاة والبطتين– مثل القردة واليراعة– مثل الخب والمغفل– مثل العلجوم والأسود وابن عرس– مثل الجرذان وتاجر الحديد).

وفي هذه الحكايات سمة أسلوبية وبنيوية أيضًا بارزة، وهي أنها تبدأ بإثارة المتلقي بذكر مَثَل من الأمثال، فيتحمّس المتلقي، ويشحذ همّته لمعرفة طبيعة هذا المثل، فيطرح سؤاله: "**وكيف كان ذلك؟**" أو "**وما ذلك المثل؟**"، فيأتي الرد بقول الراوي: "**زعموا أنّ...**" لتكون هذه الجملة هي نقطة انطلاقه السردي في قص الحكاية.

هذا ومثل هذه القصص الفرعية تصلح كل واحدة منها أن تكون قصة في أدب الأطفال، وجديرة بأن تحكى منفصلة لاستقاء العبرة منها، فكما رأينا في حكاية القرد والنجار مثلا، أنها ترمي إلى أنه من تكلّف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد من الأذى، وكذلك في الحكايات التي ضاق المقام عن ذكرها، نجد حكايتي (الغراب والأسود) و(الأرنب والأسد) اللتين تُستقى منهما عبرة أن الاحتيال بالدهاء والخدعة يصرع القوة الخالية من تدبير الحكمة، وحكاية (الذئب والغراب وابن آوى) الذين اجتمع أمرهم بالمكر والخديعة والدهاء على تقديم الجمل طعامًا للأسد. وحكاية (وكيل البحر والطيطوي) المسوقة لبيان مصير من يتهاون بعدوّه ويستصغر أمره، وحكاية (القردة واليراعة) ومغزاها ألا يلتمس الإنسان تقويم ما هو معوّج بطبعه وخلقته، وحكاية (الخب والمغفل) التي تبين أن الماكر المخادع الذي يحتال للأمور، ربما كان هو المغبون.[22]

وعلى هذا كان كتاب (كليلة ودمنة) ثريًّا في حكاياته مقارنةً بـ(الكوندي لوكانور).

- **الشخصيات:**

تتمتع كلتا القصتين بوجود متلقٍ (الملك والكوندي)، وراوية (الفيلسوف والمستشار) كما سبق أن ذكرنا، أما القصة نفسها موضع المقارنة، فنجد أن محوري

الحكايتين الأساسيين هما (الأسد والثور) مع اختلاف في طبيعتهما بين الحكايتين كما سنوضح.

أما بطلا القصتين في (كليلة ودمنة) فهما (كليلة ودمنة) أنفسهما، فهما الشخصيتان اللتان سميت المجموعة كلها باسمهما، وهما في الحقيقة ابنا آوى، ومن الواضح أن ابن آوى حيوان منقرض ليس له وجود في حياتنا المعاصرة، وهو "يلاقح الضباع والكلاب والذئاب، ويوصف بقبح الصوت، ويقال إن له صياحًا يشبه صياح الصبيان، وهو لا ينزل القفار، وإنما يكون حيث يكون الريف. مشتهر بالخبث، والحيلة والمكر. وقد تتجمع منه في فصول الأمطار أسراب كبيرة ثائرة جائعة تهاجم قطعان الماشية، وتشيع الفزع بين الرعاة، وتتلف وتدمر أكثر مما تأكل، كما تنقض صاخبة على الجيف فتمزقها وتأكلها."[23]

وبالرغم من كون (كليلة ودمنة) أخوين ابني آوى، فقد كانا مختلفي المشرب والسجايا –كما رأينا– فبينما جسّد (كليلة) الخير والفضيلة في خلق القناعة والرضا وإيثار حب الغير، تجسّدت في (دمنة) خلق الشر، والسعي بالنميمة، وتأجيج نار العداوة بالغدر والنفاق والوقيعة والاختلاق.

أما في (الكوندي لوكانور) فقد تمّ استبدال (الثعلبة والكبش) بابن آوى (دمنة)؛ فبينما كان الأخير واشيًا مباشرة بين الأسد والثور، وذهب إلى كل منهما على حدة في الحكاية العربية، كانت (الثعلبة) –وهي مستشار الأسد– هي الواشية له عن طريق أمرها للدب، و(الكبش) –وهو مستشار الثور– هو الواشي له عن طريق الحصان.

ويبدو أن دون خوان وقع اختياره على ما يناسب بيئته الإسبانية، فلم يُعرف عندهم ابن آوى، فكان اختياره الثعلب موفقًا باعتباره قرين ابن آوى في المكر والدهاء، وكذلك الكبش باعتباره من الكائنات الحمقاء التي تهوى التسكع بلا هدف، وإن كان دون الثعلب في مكره ودهائه طبعًا.

ومن هنا نلاحظ اتفاق الحيوانات في قصة (الكوندي لوكانور) على السعاية بالنميمة والاختلاق بين الأسد والثور، فهي وشاية تزعمها كل من (الثعلبة والكبش) بطلب من سائر الحيوانات أنفسها، فظهر على الساحة الدب والحصان، كما حضر بالقوة الحيوانات آكلة اللحم التي أخضعها الأسد، والحيوانات آكلة العشب التي أخضعها الثور.

ومن ثمّ لم تخل حكاية (الأسد والثور) في (الكوندي لوكانور) من مذاقها الخاص برغم تأثرها بما جاء في كليلة ودمنة.

كذلك فإن النهاية اختلفت بين العملين، فبينما قتل الأسدُ صديقه الثورَ في الحكاية العربية، اكتفت الحكاية الإسبانية بانتصار الأسد فقط، وبرغم ذلك فقد هزل وضعف كالثور ولم يعودا لديهما القدرة على السيطرة على سائر الحيوانات، بل خضعا هما لهن!

وبينما تعرّض أسد الحكاية الإسبانية لهزال جسدي، كان أسد الحكاية العربية ذا حسرة وندم وجداني، ولكنه ظلّ ملك الغابة الذي قرّب دمنة إليه مرة أخرى، مصدقًا وشايته وبهتانه.

ومن هنا نرى أنه في الحكاية العربية كان دمنة يسعى لمصلحته هو من خلال قربه من الأسد، أما في الحكاية الإسبانية فقد سعت الحيوانات لمصلحتها جميعًا بالتخلص من سطوة الأسد والثور وبطشهما عن طريق الوقيعة بينهما.

كما أن حضور الأسد والثور كان مختلفًا بين الحكايتين، فقد كان الأسد في الحكاية العربية هو الزعيم الأوحد، وحينما ظهر الثور على مسرح الأحداث صار صديقًا مقرّبًا للأسد، ولم يكن مشاركًا له في الملك والزعامة، لكن الأسد والثور في الحكاية الإسبانية كانا صنوان، وكانا سيدي الحيوانات الأخرى، ومساعدة الثور استطاع الأسد أن يخضع الحيوانات آكلة اللحم، وبمساعدة الأسد أخضع الثور الحيوانات آكلة العشب، كما قالت القصة.

وعلى هذا نرى أن دون خوان استطاع استخلاص حكاية الأسد والثور من كليلة ودمنة وتلخيصها فعلا، بيد أنها استحالت إلى قصة أخرى لها تفاصيلها المتباينة عن القصة المصدر، وإن كان الإطار والغاية والهدف التعليمي متماثل بين الحكايتين.

ولكن ماذا عن الحوار بين الشخصيات في العملين؟

- **الحوار:**

الحقيقة أن الحوار بين الأبطال والشخصيات هو مما تميزت به الحكاية العربية عن الإسبانية، فقد اكتفت الأخيرة بسرد الراوي للأحداث وما جرى بين الشخصيات، أما في الحكاية العربية فقد ألفينا حوارًا بين ابني آوى، وحوارًا بين دمنة والأسد، ودمنة والثور، فضلا عن الأمثال المبثوثة في قصص تتقاطع رأسيًّا مع الحكاية الأساسية في خطها الأفقي.

فمن خلال السرد انفتح الحوار بين ابني آوى على ما يعرف بأدب المراسم السلطانية الذي يرتبط بالذوق والمراسم الخاصة بالحديث والنصيحة للطبقة الحاكمة وإن بُذلت بشيء من الرياء والتملق وتحمل الأذى، وكظم الغيظ وإظهار البشر، عملا بالمبدأ البراجماتي الميكافيلّي: (الغاية تبرر الوسيلة).

وعلى العكس يمضي الأفق الحواري بين دمنة والأسد بما ينبغي على الملوك أن يتبعوه مع رعيتهم وحاشيتهم، مما يرتبط بسياق الآيين والآداب السلطانية، ومن ذلك: النصح للملك، وأن ينزل الملك الناس منازلهم على قدر رأيهم عنده، وألا يحقر مروءة صغار المنزلة... إلى غير ذلك.

وبمخالطة البلاط تبرز الآداب الملوكية التي تتسم بطابع الحكمة السياسية، وفي حوار الثور مع دمنة تظهر حكمة الكاتب وبصيرته النافذة بالخلائق وطبائع النفوس الحاكمة وذوي السلطان؛ مما يفضي إلى مفارقات الحياة المأساوية المتمثلة في: أن

الهلكة قد تأتي من قبل الفضل، وقلة الطّيب وكثرة الخبيث، وعدم المفرّ من القدر المحتوم. وهي كلها مآسٍ تؤرق الوجود الإنساني وتمزقه.[24]

وفي الحوار الأخير بين (كليلة ودمنة) نوع من المكاشفة، وخروج كليلة عن هدوءه المعهود، وانفعاله على دمنة، حيث قال له: "**أيها الفسْل! انظُر إلى حيلتك، ما أنكدها وأوخم عاقبتها! فإنك قد فضحتَ الأسد، وأهلكت شنزبة، وفرَّقت كلمة الجُند، مع ما استبان لي من خُرقك فيما ادَّعيت فيه الرفق، أوَلست تعلم أنَّ أعجَزَ الرَّأي ما كلَّف صاحبه القتال، وهو عنه غَنِي؟ وأنَّ الرجل رُبَّما أمكنَته فرصتُه في عدوه فتركها مخافةَ تعرُّض النكبة، ورجاءَ أن يقدِر على حاجته بغيرِ ذلك...**"

أما عن نهاية الحوار بين المتلقي الأول (الملك والكوندي) والراوية (الفيلسوف والمستشار) فقد كانت مختلفة، فجاءت في الحكاية العربية على هيئة استقاء الموعظة والعبرة من القصة المرويّة على لسان الفيلسوف (بيدبا)، ولم يذكر أي رد فعل للمتلقي (الملك دبشليم).

أما في الحكاية الإسبانية، فقد كان للمتلقي حضوره بعد نصيحة المستشار التي أسداها له من فحوى القصة المحكيّة، حيث عمد الراوي/ المؤلف (دون خوان) أن يبرز حال (الكوندي) بعد سماع النصيحة، وعمله بها، بل أكثر من ذلك ضمّ نفسه له، وتحدث عنها، ذاكرًا أبياتًا شعريّة ضمها إلى كتابه، فقال:

"أعجب القونت كثيرا بالنصيحة التي قدمها له باترونيو وعمل بها، ورأى عاقبتها حسنة، ورأى دون خوان أن الحكاية جيدة فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات:

لا تفقد صديقا نافعا

بوشاية يقولها لك الكاذب"

وفي ذلك يقول الدكتور أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم:

"ربما يقف النقد الحديث مستغربا من تدخل دون خوان مانويل في أواخر حكاياته حين يرى المثل حسنا ويأمر بضمه إلى كتابه، وأن هذا التدخل السافر يقلل من حياد القصاص أو الراوي، ولكن هذا الاستغراب يزول حين نعلم أن دون خوان أيضا لا ينتزع من عصره وتقاليده الأدبية، وأن هذا العصر لا يرى حرجا من هذا التدخل، بل ربما يراه يزيد في الإثارة والفن، وترى ماريا روسا ليدا أن دون خوان يقتفى تقليدا قشتاليا في هذا التدخل في كتابه هذا وفي غيره من كتبه، وأن ختام الأمثال والحكايات بالشعر يدخل أيضا في هذا الإطار؛ لأن الشعر للمؤلف، وهو – أي الشعر – تقليد راسخ في الآداب كلها يطعم به التأليف النثري، فيزيده بهاء وملاحة، وهو هنا يلخص كل ما يدور في الحكاية، ليبقى أثره في النفس التي تميل إلى الشعر وتحفظه أكثر من النثر."[25]

وفي ختام الحكاية بالشعر ما يعدّ من السمات الموائز التي تفرّد بها (الكوندي لوكانور) عن (كليلة ودمنة).

وقبل أن ننتقل إلى الحكايتين الأخريين نقرر أن ما يتعلّق بالبنية الحكائيّة العامة، وكما رأيناها في حكاية (الأسد والثور)، لممّا يصدق على جميع قصص العملين (كليلة ودمنة) و(الكوندي لوكانور)؛ لذا لن نكرر ما تحدثنا عنه هنا، وسنكتفي بمقارنة الهيكل الداخلي لموضوع الحكايتين الآتيتين، ومواضع الاتفاق والافتراق بينهما.

المبحث الثاني

حكاية البوم والغربان

جاء في (كليلة ودمنة) تحت (باب البوم والغربان) ما مختصره[26]:

"قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر الإخاء ومنفعته وعظيم الفائدة فيه، فاضرب لي مَثَلَ المغترِّ بالعدوِّ المُبدِي التضرُّع، وأخبرني عن العدوِّ هل يصير صديقًا؟ وهل يُوثق بشيءٍ منه؟ وكيف العداوة؟ وما ضرُّها؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا أتاه أمرٌ من عدوِّه ومن أهل المنابذة يلتمس به الصلح، وهو في نفسه غير أمين، ولا حقيق بالطمأنينة؟

قال الفيلسوف: ليس أحدٌ بحقيقٍ إذا أتاه أمر من عدوِّه الذي يتخوفه على نفسه وجنده –وإن كان يلتمس الأمان والصلح، ويظهر المودة لجنده والسلامة لأصحابه– أن يثق به ولا يطمئن إليه ولا يغترَّ بقوله؛ فإنَّه قد يكون بأشباه ذلك يطلب النُّهزة والفُرصة، ومثل العدوِّ الذي لا ينبغي أن يُغترَّ به، وإن هو أظهر المودة والصفاء، ومن يَسترسل إلى عدوِّه ويطمئن إليه؛ فيصيبه الشرُّ ما أصاب البومَ من الغربان، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أرضًا تُسمَّى كذا وكذا، كان حولها جبل عظيمٌ محيطٌ بها، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يُقال لها يَبُمرود، وكان فيها وكرُ ألفِ غراب، ولهنَّ ملِك منهنَّ، وكان في ذلك الجبل وكر ألفٍ من البوم، فخرج ملك البوم ذات ليلة لعداوة بين البوم والغِربان، فوقعت البوم على الغربان فأكثَرن فيهنَّ القتل والجِراح، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح؛ فلما كان الغدُ، ورأى ما لقيَ جندُه اهتم وحزن وقال: يا معشر الغربان! قد ترون ما لقينا من البوم، وما أصابنا منهنَّ، وأشد ما أصابكن جُرأتُهنَّ عليكنَّ، ومعرفتهنَّ مكانكنَّ، وأنا متخوِّفٌ من كرَّتهنَّ بمثلها أو أشدِّ منها عليكنَّ.

وكان في الغربان خمسة ذَوو رفقٍ وعلمٍ ونظرٍ في الأمور ومعرفةٍ بحسن الرأي والحِيَل، وكان الملك يُشاورهم وينتهي إلى رأيهم، فقال الملك للأول من الخمسة: قد كان ما رأيت، ولسنا نأمن رجعتهم، فما الحيلة؟ فقال: الحيلة في الذي كانت العلماء تقول، فإنهم كانوا يقولون: ليس للعدوِّ الحَنِق الذي لا يُطاق إلَّا الهربُ منه والتباعدُ عنه. ثم سأل الملك الثاني، فقال: ما رأيك أنت؟ قال: أمَّا ما أشار به هذا عليك فلا أراه حَزْمًا، ولا ينبغي لنا أن نفِرَّ من بلادنا، ونَذلَّ لعدوِّنا عند أول نكبة، ولكن نُجمِع أمرنا، ونستعد لعدوِّنا، ونذكي العيون ما بيننا وبينهم، ونحترس من الغِرَّة والعودة، فإذا أقبل علينا عدوُّنا لقيناه مستعدِّين لقتاله، فقاتلناه مزاحفةً تلقى أطرافنا أطرافه، ونتحرز منه تحرزًا حصينًا، ونُدافع الأيام حتى نصيب منه غِرَّة ولعلَّنا نظفر به. ثم قال الملك للثالث: ما ترى فيما قال صاحباك؟ قال: لم يقولا شيئًا، ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي بمستقَرٍّ لنا فيما بيننا وبين البوم، وما الرأي إلى أن نُذكي العيون والطلائع بيننا وبين العدوِّ، وننظر هل يقبلنَ صُلحًا أو فديةً أو خراجًا نؤديه إليهنَّ، وندفعُ عن أنفسنا خوفهنَّ، ونأمنُ في أوطاننا وأوكارنا؛ فإنَّ من الرأي للملوك إذا اشتدت شوكة عدوِّهم وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكة والفساد، أن يجعلوا الأموال جُنَّة للرعية والبلاد. فقال الملك للرابع: ما رأيك أنت فيما قال صاحباك، والصلحِ الذي ذكر هذا؟ قال: لا أرى ذلك، بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغُربة وشدَّةِ المعيشة أحبُّ إلينا من وضع أحسابنا، والخضوع لعدوِّنا الذي نحن خيرٌ منه وأشرف، مع أني قد عرفتُ أنَّا لو عرضنا ذلك عليهنَّ لم يقبَلن إلَّا بالاشتطاط، وقد يُقال: قارِب عدوَّك بعض المقاربة تنَلْ منه حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئَ عليك بها، ويضعف ويذِلَّ لها جُندُك، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الخشبة القائمة في الشمس، فإنْ أمَلْتَها قليلًا زاد ظلُّها، وإن جاوزتَ الحدَّ في إمالتها ذهب الظل، وليس عدوُّنا براضٍ منَّا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا المحاربة والصبر. فقال الملك للخامس: ما رأيك أنت؟ آلصلح أم القتال أم الجلاء؟ قال: أمَّا القتال فلا سبيل إلى قتال من لا نُقاربه في القوَّة والبطش؛ فإنه من

أقدم على عدوِّه استضعافًا له اغترَّ، ومن اغترَّ أمكن مِن نفسه ولم يسلم، وأنا للبوم شديد الهيبة، ولو أنها أضربت عن قتالنا، وقد كنَّا نهابها قبل إيقاعها بنا، فإنَّ العاقل لا يأمن عدوَّه على كل حال؛ إن كان بعيدًا لم يأمن من معاودته، وإن كان متكشِّفًا لم يأمن استطراده، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته، وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره، وأكيَسُ الأقوام مَن لم يكن يلتمس الأمر بالقتال ما وَجَد إلى غير القتال سبيلًا؛ فإنَّ النفقة في القتال من الأنفس، وغيرُ ذلك إنما النفقة فيه من الأموال، فلا يكونن قتالُ البوم من شأنكم؛ فإنَّ مَن يواكل الفيل يواكل الحَيف. قال الملك: فما ترى إذ كرهت ذلك؟ قال: نأتمر ونتشاور، فإنَّ الملك المشاوِر المؤامر يُصيب في مؤامراته ذوي العقول من نصحائه من الظفر ما لا يُصيبه بالجنود والزحف وكثرة العُدد، فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحَزَمة كما يزداد البحر بموادِّه من الأنهار، ولا يخفى على الحازم قدرُ أمرِه وأمرِ عدوِّه، وفرصةُ قتاله، ومواضعُ رأيه ومكايدته. ولا ينفكَّ يعرضُ الأمور على نفسه أمرًا أمرًا، يتروَّى في الإقدام على ما يريد منها، والأعوان الذين يستعين بهم عليها، والعُدَد التي يُعدُّ لها، فمن لا يكون له رأي في ذلك ولا نصيحة من الوزراء الذين يُقبل منهم لم يلبث، وإن ساق القدر إليه حظًّا، أن يُضيِّع أمره، فإن الفضل المقسوم لم يقيَّض للجَمال ولا للحسب، ولكنه وُكِّل بالعاقل المستمع من ذوي العقول، وأنت أيها الملك كذلك، وقد استشرتني في أمر أريد أن أجيبك في بعضه علانية وفي بعضه سرًّا. أمَّا ما لا أكره أن أعلنه فإني كما لا أرى القتال لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بذلِّ الدهر؛ فإنَّ العاقل الكريم يختار الموت كريمًا محافظًا، على الحياة خزيانَ ذليلًا، وأرى أن نؤخِّر النَّظر في أمرنا، ولا يكونن من شأنك التثبُّط والتهاون؛ فإنَّ التهاون رأس العجز. وأمَّا ما أريد إسراره فليكن سرًّا، فإنه قد كان يُقال: إنما يُصيب الملوك الظفرَ بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأيَ بتحصين الأسرار، وإنما يُطَّلع على السر من قِبَل خمسة: من قِبَل صاحب الرأي، ومن قِبَل مُشاوِرِه، ومن قِبَل الرُّسُل والبُرُد، ومن قِبَل المستمعين الكلام، ومن قِبَل الناظرين في أثر الرأي

ومواقع العمل بالتشبيه والتظنِّي، ومن حصَّن سرَّه فإنه من تحصينه إياه في أحد أمرين: إما ظفَر بما يريد، وإمَّا سلامة من عيبه وضره إن أخطأه ذلك، ولا بدَّ لمن نزلت به نائبة من استشارة الناصح، وطَلَبِ من يعاونه على الرأي، ويُفضي إليه، فإنَّ المستشير، وإن كان أفضلَ من المستشار رأيًا، فإنه يزداد بالمشورة رأيًا وعقلًا؛ كما تزداد النار بالوذَك ضَوءًا، وعلى المستشار موافقةُ المستشير على صواب ما يرى، والرفق به في تبصيره وردِّه عن خطأ رأيٍ -إن كان منه- وتقليبُ الرأي فيما يُشكَل عليه حتى يستقيم لهما سرُّهما، فإن لم يكن المستشار كذلك، فهو على المستشير مع عدوِّه، كالرجل الذي يَرقي الشيطان ليُرسله على الإنسان، فإذا لم يُحكِم الرُّقية كان به يتلبَّس، وإياه يأخذ..."

ويمضي الحوار بين ملك الغربان ومستشاره، سائلا إيّاه عن سبب العداوة بين البوم والغربان، فقصّ عليه أنه "زعموا أن جماعةً منَ الطير لم يكن لها ملك، وأنها اجتمعت آراؤها على بومٍ لتُملِّكه عليها، فبينما هم في ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم: انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب لنستشيره في أمرنا؛ فأتاهنَّ الغراب فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تمليك البوم، فقال الغراب: لو أنَّ الطير كلَّها فُقِدت وبادت، وفُقِد الطاوس والبطُّ والحمامُ والكُركيُّ، لما اضطُررتنَّ إلى تمليك البوم أقبحِ الطير منظرًا، وأسوئها مَخبَرًا، وأقلِّها عقولًا، وأشدِّها غضبًا، وأبعدها رحمةً، مع الذي بها من الزمانة والعَشَى بالنهار، ومن شرِّ أمورها سوء تدبيرها، ولا يطيق طائر يقرب منه لصلفه وخُبث نتْنه وسوء خَلقه، إلَّا أن ترين تمليكه وتدبير الأمور دونه؛ فإنَّ الملك، وإن كان جاهلًا، إذا كان يُقدَر على الدنوِّ منه وكانت قرابينه ووزراؤه ورسله صالحين نفذَ أمره ورأيه واستقام له ملكه... ثم قال الغراب: والبوم تجمع مع سائر العيوب التي وصفتُ المكرَ والخديعةَ، فلا يكوننَّ تمليك البوم من رأيكن، فصدرت الطير عن خُطَّة الغراب ولم تُملِّك البوم، فقال البوم الذي كان اخْتِير للمُلك: لقد وَتَرْتَنِي أعظمَ التِّرَةِ، فما أدري هل سلف إليك منِّي سوء استحققتُ به هذا منك؟ وإلَّا فاعلم أنَّ الفأسَ يُقطع بها

الشجر فتنبت وتعود، والسيف يُقطَع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جُرحه ولا يلتئم ما قطع، والنَّصل من النُّشَّابة يغيب في الجوف ثم يُنزع، وأشباه النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُنزع ولم تُخرَج، ولكل حريق مطفئ: للنار الماء، وللسمِّ الدواء، وللعشق الوصال، وللحزن الصبر، ونار الحقد لا تخبو، وإنكم – معشر الغربان – قد غرستم بيننا وبينكم شجرة عداوةٍ وحقدٍ، هي باقيةٌ ما بقيَ الدهر.

ثم انصرف غضبان موتورًا، ونَدِمَ الغراب على ما فرَط منه، وقال في نفسه: لقد خرقتُ فيما كان من قولي الذي جلبت به العداوةَ على نفسي وقومي، ولم أكن أحقَّ الطير بهذه المقالة، ولا أعناها بأمر مُلكها، ولعلَّ كثيرًا منها قد رأى الذي رأيت، وعلم الذي علمت، فمنعها من ذلك الاتقاءُ لما لم أَتَوَقَّهُ، والنظر فيما لم أنظر فيه...

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سألتَ عنه من العلَّة التي بدأَت بها العداوةُ بين البومِ والغربانِ، قال الملك: قد فهمتُ هذا، فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم، وأشِر علينا برأيك الذي ترى أن نَعْمَل به فيما بيننا وبين البوم، قال الغراب: أمَّا القِتَال فقد كنتَ عرفتَ رأيي فيه وكراهيتي له، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج... فأنا أرى أن يغضب عليَّ الملك فيأمر بي على رءوس جنده فأضُرَب وأُنْقَر حتى أتخضب بالدم، ويُنتَفَ ريشي وذَنَبي، ثم أُطْرَحَ في أصل الشجرة، ثم يرتحل الملك وجندُه إلى مكان كذا وكذا حتى أمكُر مَكري، ثم آتي الملك فأعلِمه الأمر؛ ففعل به الملك ذلك، وذهب بغربانه إلى المكان الذي وصف له.

ثم إنَّ البوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغربان، ولم تفطُن بالغراب في أصل الشجرة، فأشفق الغراب أن ينصرفْن ولا يرَينه فيكونَ تعذيبُه نفسَه باطلًا، فجعل يئِنَّ ويهمِس حتى سمعه بعض البوم، فلمَّا رأينه أخبرن به ملِكهنَّ، فعَمد نحوه في بومات يسأله عن الغربان؛ قال الغراب: أنا فلان بن فلان، وأمَّا ما سألتني عنه من أمر الغربان، فأنت ترى حالي وما صنعوا بي، قال ملك البوم: هذا وزيرُ ملك الغربان

وصاحبُ رأيه، فسلوه بأيِّ ذنبٍ صُنِع به هذا؟ قال الغراب: سَفَهُ رأيي فَعل بي ما ترى، قال الملك: وما ذلك السفه؟ قال الغراب: إنه لمَّا كان من إيقاعِكنَّ بنا ما كان استشارنا ملكنا فقال: يا أيها الغربان! أما ترون ما نزل بنا من البوم؟ وكنت من الملك بمنزلة وبمكان، فقلت: أرى أنه لا طاقة لكم بقتال البوم؛ فإنَّهنَّ أشدُّ بطشًا وأجرأ قلوبًا، ولكنَّ الرَّأي لكم أن تلتمسوا الصُّلح وتعرضوا الفِدية، فإن قُبِل ذلك منكم وإلَّا فاهرُبوا في البلاد، وأخبرت الغربان أن قتالكنَّ خيرٌ لكنَّ، وشرٌّ لهنَّ، وأنَّ الصلح أفضلُ ما هنَّ مصيباتٌ منكنَّ، وأمرتُهنَّ بالخضوعِ، وضربتُ لهنَّ في ذلك مثلًا فقلتُ: إنَّ العدوَّ الشديد لا يَرُدُّ بأسَه وغضبه شيءٌ هو أمثَلُ من الخضوع له، ألا ترون أنَّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصف بلينه وانثنائه معها حيثما مالت، والشجرة العظيمة تُحطمها لانتصابها لها، والبعوضة تريد اختلاس النار ولا تتقيها فتحترق منها؟ فغضبن من قولي وزعمن أنهنَّ يُرِدن القتال، واتَّهمنني وقُلن: بل مالأتَ ملك البوم علينا وغششتنا، ورددن رأيي ونصيحتي، وعذَّبنني بهذا العذاب. فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب استشار وزراءه فقال لأحدهم: ما ترى في هذا الغراب؟ فقال: لستُ أرى أن نناظر هذا، وليس لك في أمره نظرٌ إلَّا المُعاجلة بالقتل؛ فإنَّ هذا من أفضل عُدد الغربان، وفي قتله لنا فتحٌ عظيمٌ وراحةٌ من مكيدته، وفقدُه على الغربان شديد، وقد كان يُقال: مَن استمكن من الأمر الجسيم فأضاعه لم يقدر عليه ثانيةً، ومَن التمس فرصة العمل وأمكنته ثم غفل عنها فاته الأمر ولم تَعُد إليه الفرصة، ومَن وجد عدوَّه ضعيفًا فلم يستَرِحْ منه أصابته النَّدامة حين يقوى العدوُّ ويستعدُّ، فلا يقدر عليه؛ فقال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى في هذا الغراب؟ قال: أرى ألَّا تقتله؛ فإنَّ العدوَّ الذليلَ الذي لا شوكةَ له أهلٌ أن يُصفحَ عنه ويُستَبْقَى، والمُستجيرَ الخائف أهلٌ أن يُؤمَّن ويُجار، مع أنَّ الرجل ربما عطفه على عدوِّه الأمر اليسير...

ثم إنَّ الملك سأل الثالث من وزرائه عن رأيه في الغراب، فقال الثالث: أرى أن تستبقيه وتُحسِن إليه؛ فإنه خليقٌ بمناصحتك، وإنَّ من إحكام تمكُّن الرجل من أعدائه

أن يستدخل منهم أعوانًا على الباقين، وإنَّ ذا العقل يرى ظَفَرًا حَسَنًا معاداةَ بعض عدوِّه بعضًا...

فلمَّا فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذي أشار بقتل الغراب: أراكُنَّ قد غرَّكنَّ هذا الغراب وخدعكنَّ كلامه وتضرُّعه، فأنتنَّ تُرِدن تضييعَ الرأي والتغرير بجسيم الأمور، فمهلًا مهلًا عن هذا الرأي، وانظُرنَ نظَرَ ذوي اللبِّ الذين يعرفون أمورهم وأمور عدوِّهم، ولا يثنِكنَّ عن رأيِكنَّ فتكونوا كالعجزة الذين يغترون بما يسمعون، وتلينُ قلوبهم لعدوِّهم عند أدنى مَلَقٍ وتضرُّعٍ... فلم يلتفت ملك البوم وسائر وزرائه إلى كلامه. ثم إنَّ ملك البوم أمر أن يُحمَل الغراب إلى مكانهنَّ فيوصَى به خيرًا ويُكرَم ويُحسَن إليه، فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يَقتُل الملكُ هذا الغراب فلتكنْ منزلتُه منكم منزلةَ العدوِّ المخوف المحترَس منه؛ فإنَّ الغراب ذو أدبٍ ومكرٍ ومكيدةٍ، وما أراه يرضى بالمُقام معنا، ولا جاء إلينا إلَّا لما يُصلحه ويُفسدنا. فلم يرفع الملك بقوله رأسًا، ولم يزدد إلَّا كرامةً للغراب وإحسانًا إليه...

فلم يلتفت ملك البوم ولا غيره منهنَّ إلى هذا المثل، ورفقن بالغراب، ولم يزددن له إلَّا كرامةً حتى استقلَّ ونبت ريشُه ونما وصلح وعلم ما أراد أن يعلم واطَّلع على ما أراد الاطِّلاع عليه، ثم إنَّه راغ رَوغة إلى الغربان، فقال لملكهم: أبُشِّرك بفراغي مما أردتُ الفراغ منه من أمر البوم، وإنما بَقيَ ما قِبَلك وقِبلَ أصحابك، فإنْ أنتم صَرُمْتم وبالغتم في أمركم فهو هلاك البوم؛ فقال الغربان وملكهم: نحن عند أمرك. فقال: إنَّ البوم بمكان كذا وكذا، وهنَّ بالنَّهار يجتمعن في مغار في الجبل، وقد علمت مكانًا كثير الحطب، فتعالوا نعمد إليه، وليحمل كل غراب منَّا ما استطاع إلى ذلك النقب، وقُربَ ذلك الجبل راعي غنَم، وأنا مصيبٌ منه نارًا فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم؛ أي نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقيَ مات خنقًا بالدخان؛ ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبرَ للأخيارِ على صحبة الأشرارِ؟ قال الغراب: إنَّ ذلك كذلك، ولكنَّ الرجل العاقل إذا نابه الأمرُ الفظيع الذي يخاف فيه الهلكة الجائحة على نفسه وقومه، لم يجد بدًّا من احتمال الضيق، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو لذلك من رَوح العاقبة، ولم يجد لذلك مساءة، ولم يُكرِم نفسه عن الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامدٌ لِغِبِّ أمره، ومُغتبط بما كان من رأيه واصطباره على ما كان فيه. قال الملك: فأخبرني عن عقول البوم، قال الغراب: لم أجد فيهنَّ عاقلًا إلَّا الذي كان يشيرُ بقتلي، وكنَّ أضعف شيءٍ رأيًا، لم ينظُرن في أمري، ولم يذكُرن أني كنت ذا منزلة من المَلك، وأنِّي أُعدُّ من ذوي الرأي، فلم يتخوفنَ من مكري وحيلتي، وأخبرهنَّ الحازم الرأي الناصحُ فرددن نصحه، فلا هنَّ عَقَلن، ولا من ذوي الرأي قبِلن، ولا حَذِرْنَني ولا حَصَّنَّ سرَّهن دوني، وكان يُقال: ينبغي للملك أن يحصِّن دون المتهم سرَّه وأمره، فلا يدنو من موضع أسراره وأموره وكُتُبه، ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه، حتى من الماء والفُرُش التي يجلس عليها، والحُلَّةِ التي يلبَسها، والدابَّةِ التي يركبها، والأدوية التي يشربها، وإكليل الريحان الذي يضعه على رأسه، والطيبِ الذي يستعمله، والشعارِ الذي يتخذه، وكلِّ شيءٍ يدنيه منه، ولا يأمنُ على نفسه إلَّا الثقة عنده.

قال ملك الغربان: لم يُهلِك ملِك البوم إلَّا بغيُه وضعفُ رأيه ورأي وزرائه، قال الغراب: صدقت، قلَّما ظفر أحد ببغي، وقلَّ من حرص على النساء فلم يفتضح، وقلَّ مَن أكثر من الطعام فلم يسقَم، وقلَّ من ابتُليَ بوزراء السوء إلَّا وقع في المهالك، وكان يُقال: لا يطمعنَّ ذو الكِبْر والصلَف في الثناء الحسن، ولا يطمعَنَّ الخبُّ في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدبِ في الشرف، ولا الشحيح في البرِّ، ولا الحريصُ في قلة الذنوب، ولا الملِك المتهاون الضعيفُ الوزراءِ في بقاءِ مُلكه.

قال الملك: لقد احتملتَ مشقة شديدة بتصنُّعك للبوم وتضرُّعك لهنَّ، قال الغراب: إنه مَن احتمل مشقة يرجو فيها منفعة صبر على ذلك..."

وهكذا تنتهي الحكاية إلى انتصار الغربان على البوم بفضل حيلة أحد الغربان الماكرة الذكيّة في خداع البوم، ولكن هل سارت الحكاية في (الكوندي لوكانور) على المنوال نفسه في (كليلة ودمنة)؟

هذا ما ستجيب عنه السطور الآتية.

Cuento XIX

Lo que sucedió a los cuervos con los búhos

Hablaba otro día el Conde Lucanor con Patronio, su consejero, y le dijo:

-Patronio, estoy en lucha con un enemigo muy poderoso, que tenía en su casa a un pariente que se había criado con él y a quien había favorecido muchas veces. Una vez, por una disputa entre ellos, mi enemigo causó graves daños y deshonró a su pariente que, aunque le estaba muy obligado, pensando en aquellas ofensas y buscando la forma de vengarse, desea aliarse conmigo. Creo que me sería hombre muy útil, pues podría aconsejarme el mejor modo de hacerle daño a mi enemigo, ya que lo conoce muy bien. Por la gran confianza que me merecéis y por vuestro buen sentido, os ruego que me aconsejéis el modo de solucionar esta duda.

-Señor Conde Lucanor -dijo Patronio-, lo primero que debo deciros es que ciertamente este hombre ha venido a vos para engañaros, y, para que sepáis cómo lo intentará conseguir, me gustaría que supierais lo que sucedió a los cuervos con los búhos.

El conde le preguntó lo que había sucedido en este caso.

-Señor Conde Lucanor -dijo Patronio-, los cuervos y los búhos estaban en guerra entre sí, pero los cuervos llevaban la peor parte porque los búhos, que sólo salen de noche y de día permanecen escondidos en lugares muy ocultos, volaban al amparo de la oscuridad hasta los árboles donde se cobijaban los cuervos, golpeando o matando a cuantos podían. Como los cuervos sufrían tanto, uno de ellos muy experimentado, al ver el grave daño que recibían los suyos, habló con sus parientes los cuervos y encontró un medio para vengarse de sus enemigos los búhos.

»Este era el medio que pensó y puso en práctica: los cuervos le arrancaron las plumas, excepto alguna de las alas, por lo que volaba muy poco y mal. Así, lleno de heridas, se fue con los búhos, a los que contó el mal y el daño que le habían causado los cuervos porque él no quería la guerra contra los búhos, por lo cual, si ellos lo aceptaban como compañero, estaba dispuesto a decirles las mejores maneras para vengarse de los cuervos y hacerles mucho daño.

»Los búhos, al oírlo, se pusieron contentos porque pensaban que con este aliado podrían derrotar a sus enemigos los cuervos, con lo cual empezaron a tratarlo muy bien y le hicieron partícipe de sus planes secretos y de sus proyectos para la lucha.

»Sin embargo, había entre los búhos uno que era muy viejo y que tenía mucha experiencia que, cuando se enteró de lo del cuervo, descubrió el engaño que les preparaba y fue a explicárselo al cabecilla de los búhos, diciéndole que, con toda seguridad, aquel cuervo se les había unido para conocer sus planes y preparar su derrota, por lo que debía alejarlo de allí inmediatamente. Pero este experimentado búho no consiguió que sus hermanos le hicieran caso, por lo cual, al ver que no lo creían, se alejó de ellos y se fue a vivir a un lugar donde los cuervos no pudieran encontrarlo.

»Los búhos, no obstante, siguieron confiando en el cuervo. Cuando le crecieron otra vez las plumas, dijo a los búhos que, pues ya podía volar, iría en busca de los cuervos para decirles dónde estaban y, de esta manera, reunidos todos los búhos, podrían acabar con sus enemigos los cuervos, cosa que les agradó mucho.

»Al llegar el cuervo donde estaban sus hermanos, se juntaron todos y, como sabían los planes de los búhos, los atacaron de día, cuando ellos no vuelan y están tranquilos y sin recelo, y destrozaron y mataron a tantos búhos que los cuervos quedaron como únicos vencedores.

»Así les sucedió a los búhos, por fiarse del cuervo que es, por naturaleza enemigo suyo.

»Vos, señor Conde Lucanor, pues sabéis que este hombre que quiere aliarse con vos debe vasallaje a vuestro enemigo, por lo cual él y toda su familia son vuestros enemigos también, os aconsejo que lo apartéis de vuestra compañía porque es seguro que pretende engañaros y busca vuestro mal. Pero si él os quiere servir desde fuera de vuestras tierras, de modo que nunca conozca vuestros planes ni pueda perjudicaros y verdaderamente hiciera tanto daño a aquel enemigo vuestro que nunca pudiera hacer las paces con él, entonces podréis confiar en ese pariente despechado, haciéndolo siempre con cautela para que no os pueda resultar peligroso.

El conde pensó que este era un buen consejo, obró según él y le fue muy provechoso.

Y como don Juan comprendió que se trataba de un cuento muy bueno, lo mandó escribir en este libro e hizo estos versos que dicen así:

Al que antes tu enemigo solía ser
ni en nada ni nunca le debes creer.

كان هذا هو النص الإسباني للحكاية، ونعرض الآن الترجمة العربية له[27].

الحكاية التاسعة عشرة

ما حدث للبوم مع الغربان

كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو، قال له ما يلي:

يا باترونيو: لي عدو شديد السطوة، ومعه في بيته قريب له كان يربيه، وأحسنَ الصنيع إليه، وفي يوم ما تشاحنا، فأهانه عدوي بالقول والفعل، الأمر الذي جعل قريبه، وإن كان عليه أن يحمد فضله، وهو يرى الإهانة التي وجهها إليه عدوي، يبحث عن وسيلة للانتقام، فقدم إليّ، وهذا ما يبدو لي في مصلحتي؛ لأن هذا، وهو يعرف جيدا عدوي في ذرعه أن ينصحني كيف أتشفى من عدوي. وللثقة التي أوليكها لشخصك ولرأيك، أرجوك أن تقول لي ما تعتقده وما يجب عليّ أن أصنعه.

أجاب باترونيو: سيدي القونت لوقانور. في المقام الأول أؤكد لك أن هذا الرجل إنما قدم إليك ليخدعك، ولكي تدرك جيدا ماذا يريد عمله، يسرني أن تعرف ماذا حدث للبوم والغربان.

رجاه القونت أن يحكى له:

قال باترونيو: سيدي القونت لوقانور، كانت حرب ناشبة بين الغربان والبوم، وكانت الغربان تفقد كثيرا من أفرادها؛ لأن البوم كما تعودت أن تطير في الظلام بينما في النهار تتخفى في كهوف يصعب الوصول إليها، كانت تأتي إلى الأشجار التي تأوي إليها الغربان، فتقتلها، أو تجرح الكثير منها، وإزاء ما حدث تكلم غراب حكيم. وقد أحزنه كثيرا ما يحدث لأقرانه – مع الغربان ونظرائه، وشرح لهم طريقة الثأر، وكانت الطريقة كما يلي:

أولا، تنزع الغربان كل ريش جسمه، وأن تدع ريشات يسيرة في جناحيه بها يستطيع الطيران قليلا بصعوبة، بهذه الصورة السيئة مضى إلى البوم، وحكى لها أن الغربان صنعت به ذلك لأنه نصحها –ضمن نصائحه– ألا تحارب البوم؛ ولهذا فهو مستعد إذا أرادت البوم أن يعلمها كيف تستطيع الانتقام من الغربان، وأن تفعل بها الأفاعيل.

حين سمعت البوم ذلك فرحت جدا، واعتقدت أنها من خلال هذه الوسيلة تحرز النصر، وأنشأت تعامل الغراب معاملة حسنة جزاء نصحه، وأن تفصح له عن أسرارها وحيلها. وكان –مع ذلك– بين البوم، بومة هرمة جدا، ولها تجارب كثيرة، فهمت خدعة الغراب، فذهبت إلى زعيم البوم قائلة له إنها متأكدة من أن هذا الغراب إنما أتى ليقف على ما نصنع، الأمر الذي لم يكن من الحكمة قبوله في صحبتك، إلا أن الزعيم لم يقتنع بقولها، حين رأت البومة العجوز هذا اعتزلت صواحبها ماضية إلى مكان آخر حيث لا تجدها الغربان، أما بقية البوم فقد وثقت بالغراب.

حين نما ريش جناحي الغراب قال للبوم إنه الآن يستطيع الطيران، وهو ذاهب للبحث عن الغربان، ثم يجيء ليخبرها بمكان الغربان حتى تقضى البوم عليها تماما، فسرت البوم بذلك، حين وصل إلى الغربان مجتمعة، أخبرها بما تصنع البوم فذهبت الغربان إليها بالنهار حيث لا تطير البوم، وفي الوسع الانقضاض عليها، فقتل الغربان منها الكثير، وانتصرت عليها، وقد حدث هذا للبوم لثقتها في الغراب، وهو العدو التقليدي لها.

سيدي القونت لوقانور، إنك تعرف أن ذلك الرجل الذي قدم إليك إنما هو قريب لعدوك، وعدوك قريب له أيضا، وبما أنهما من أصل واحد فلا يمكن بحال أن تبقيه معك، وفي وسعك التأكد من أنه لم يأت إليك إلا لخداعك وإيلامك، لكن إذا كان يريد أن يخدمك وهو بعيد، حيث لا يمكنه إلحاق ضرر بك، ولا الوقوف على ما تصنع، فإنه يمكنه أن يلحق الضرر الكثير بعدوه وهو قريبه حيث لا يمكنه التصالح معه أبدا، في هذه الحالة فقط في وسعك الثقة به، لكن دائما على طريقة ألا يستطيع أن يدرك أبدا.

رأى القونت أن هذه نصيحة حسنة، وعمل بها، ورأى عاقبتها طيبة، ورأى دون خوان أن هذه حكاية جيدة، فضمها إلى كتابه، وذيلها بهذه الأبيات:

لا تثق في صـــــاحب عـــــدوك أبدا

التحليل المقارن للحكايتين

- الإطار السردي:

اتفقت القصتان في الإطار العام، وفي الموضوع تمامًا، غير أنه في (كليلة ودمنة)، كان سؤال الملك موجهًا مباشرة للفيلسوف بطلب ضرب المثل:

"قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر الإخاء ومنفعته وعظيم الفائدة فيه، **فاضرب لي مَثَلَ** المغترِّ بالعدوِّ المُبدِي التضرُّع، وأخبرني عن العدوِّ هل يصير صديقًا؟ وهل يُوثق بشيءٍ منه؟ وكيف العداوة؟ وما ضرُّها؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا أتاه أمرٌ من عدوِّه ومن أهل المنابذة يلتمس به الصلح، وهو في نفسه غير أمين، ولا حقيق بالطمأنينة؟"

أما في (الكوندي لوكانور) فكان طلب الكوندي لمستشاره النصح في أمر عدوه مع صديقه الذي كان يبحث عن وسيلة للانتقام من عدوه بعد أن تشاحن معه.

ومضت الحكاية في المصدرين على النهج نفسه، غير أنها في (كليلة ودمنة) جنحت إلى الاستطراد كما هو المعتاد بسبب (شجرة الحكايات المتداخلة)، كما أنها تضمنت الحديث عن سبب العداوة بين البوم والغربان، وأنها كانت بسبب غراب نصح مجموعة من الطيور أرادوا تأمير البوم عليهن، فنصحهن بعدم المضي في ذلك لأسباب ذكرها تسيء إلى عالم البوم –كما رأينا في القصة– بينما مالت في (الكوندي لوكانور) إلى الاختصار.

كما أنه في (كليلة ودمنة) تفصيل لمسرح الأحداث "زعموا أن أرضًا تُسمَّى كذا وكذا، كان حولها جبل عظيمٌ محيطٌ بها، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يُقال لها يَبُمرود، وكان فيها وكرُ ألفِ غراب..."

أما نهاية القصتين وإن اتفقتا على هزيمة البوم أمام الغربان، فقد اختلفتا بعض الشيء في طريقة المعالجة، ففي (كليلة ودمنة) أخبر الغراب أقرانه أنَّ "البوم بمكان

كذا وكذا، وهنَّ بالنَّهار يجتمعن في مغار في الجبل، وقد علمت مكانًا كثير الحطب، فتعالوا نعمد إليه، وليحمل كل غراب منَّا ما استطاع إلى ذلك النقب، وقُربَ ذلك الجبل راعي غنَم، وأنا مصيبٌ منه نارًا فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم؛ أي نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقيَ مات خنقًا بالدخان؛ ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات."

أما في (الكوندي لوكانور) فقد أخبر الغراب الحكيم أصدقاءه "بما تصنع البوم فذهبت الغربان إليها بالنهار حيث لا تطير البوم، وفي الوسع الانقضاض عليها، فقتل الغربان منها الكثير، وانتصرت عليها."

فمن الجليّ أن في (كليلة ودمنة) تفصيلاً لطريقة الانتصار، وأنه تم القضاء على جميع البوم، في حين نفتقد ذلك في (الكوندي لوكانور)، كما أن فيه قتل الكثير من البوم، وليس القضاء التام عليهن.

وبينما تنتهي الحكاية عند هذا الحد في الكوندي لوكانور، وتختم بالحكمة الشعرية التي يدونها دون خوان نفسه في كتابه، وهي: "**لا تثق في صاحب عدوك أبدا**"؛ بينما الأمر كذلك في (الكوندي لوكانور)، فقد استمرت الحكاية في (كليلة ودمنة) بالحوار بين الملك والغراب الفدائي عن حياته مع البوم.

- شجرة الحكايات:

تضمن باب (البوم والغربان) في (كليلة ودمنة) عدة أمثال شكلت شجرة الحكايات الفرعيّة المتشابكة أغصانها مع الحكاية الأصلية، وهذه الأمثال هي:

(مثل الأرنب وملك الفيلة، ومثل الصفرد والأرنب والسنور، ومثل الناسك والمكره والعريض، ومثل التاجر وامرأته والسارق، ومثل الناسك واللص والشيطان،

ومثل النجار وامرأته وخليلها، ومثل الناسك والفأرة التي تحولت إلى جارية، ومثل الأسود وملك الضفادع).

وبينما الحال كذلك في الحكاية العربية، غابت شجرة الحكايات عن الكوندي لوكانور، وبقي خط السرد خالصًا للحكاية الأصليّة.

- الشخصيات:

تبدو الشخصيات بين العملين متقاربة إلى حد كبير، بيد أنه يظهر في (كليلة ودمنة) أننا بين مملكتين، لكل منهما ملك قائم عليها، أما في (الكوندي لوكانور) فلم يظهر ذلك إلا من خلال لمحة ذهاب البومة الحكيمة إلى زعيم البوم.

ففي (كليلة ودمنة) رأينا للغربان ملِكًا منهنَّ، وكان في ذلك الجبل وكر ألفٍ من البوم، فخرج ملك البوم ذات ليلة لعداوة بين البوم والغِربان، فوقعت البوم على الغربان فأكثَرن فيهنَّ القتل والجِراح...

ثم قد اجتمع زعيم الغربان برفقائه، وكان في الغربان خمسة ذَوو رفقٍ وعلمٍ ونظرٍ في الأمور ومعرفةٍ بحسن الرأي والحِيَل، وكان الملك يُشاورهم وينتهي إلى رأيهم... واستمع إلى كل واحد منهم، حتى انتهى إلى اجتماعه السري بالخامس –بناء على طلبه– الذي طلب من الملك أن يغضب عليه، ويأمر على رءوس جنده فيضربه حتى يتخضب بالدم، ويُنتَفَ ريشه وذَنَبه، ثم يُطرح في أصل الشجرة، ثم يرتحل الملك وجندُه إلى مكان كذا وكذا حتى يمكُر مَكره، ثم يأتي الملك فيعلمه الأمر؛ ففعل به الملك ذلك، وذهب بغربانه إلى المكان الذي وصف له.

أما هو فقد مكث في مكانه حتى جاءت البوم فوجدنه، وقصّ عليهن ما حدث، وذهب معهن بغرض خداعهن كما رأينا.

أما في (الكوندي لوكانور) فقد بدا الأمر بنصيحة غراب حكيم إلى أقرانه من الغربان مباشرة بأن ينزعوا ريشه عدا ريشات يستطيع الطيران بها، وأن يذهب إلى البوم بهذه الصورة ليطلب منها أن تساعده في الانتقام من الغربان.

واتفقت القصتان في وجود شخصية حكيمة هي أول الوزراء الثلاثة في قصة (كليلة ودمنة)، وهي البومة الهرمة التي لها تجارب كثيرة في (الكوندي لوكانور) فهمت خدعة الغراب، ونصحت بعدم الانصياع لكلامه، بيد أن رد فعل البوم كان واحدًا في القصتين، وهو عدم الإنصات لهذه البومة، والمضي قدمًا في معاونة الغراب المخادع!

- **الحوار:**

إن المتتبع للحوار في الحكايتين يجد أنه عنصر متمتع بثراء كبير في (كليلة ودمنة)؛ مما يجعلنا كأننا بصدد حكاية حوارية، بل حكايات حواريّة إذا ما أضفنا إلى خط الحكاية الأصلي حياكتها بخط الحكايات الفرعية، وذلك على العكس من (الكوندي لوكانور) الذي خلص لسرد الراوي للأحداث والأقوال بطريقة الحكاية.

وقد تميز الحوار بين الشخصيات في العمل العربيّ بحشد الكثير من الأمثال والحكم الذي تخدم الغرض التعليمي للأطفال والكبار معًا. من ذلك على سبيل المثال، ما ألفيناه من حوار بين ملك الغربان ومستشاريه الخمسة، ومنها:

- "الحيلة في الذي كانت العلماء تقول، فإنهم كانوا يقولون: ليس للعدوِّ الحَنِق الذي لا يُطاق إلَّا الهربُ منه والتباعدُ عنه."
- "من الرأي للملوك إذا اشتدت شوكة عدوِّهم وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكة والفساد، أن يجعلوا الأموال جُنَّة للرعية والبلاد..."
- "وقد يُقال: قارِب عدوَّك بعض المقاربة تنَلْ منه حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئَ عليك بها، ويضعف ويذِلَّ لها جُندُك، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الخشبة القائمة في الشمس، فإنْ أمَلْتَها قليلًا زاد ظلُّها، وإن جاوزتَ الحدَّ في إمالتها ذهب الظل..."

- "من أقدم على عدوِّه استضعافًا له اغترَّ، ومن اغترَّ أمكن مِن نفسه ولم يسلم..."
- "إنَّ العاقل الكريم يختار الموت كريمًا محافظًا، على الحياة خزيانَ ذليلًا..."
- "إنما يُصيب الملوك الظفرَ بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأيَ بتحصين الأسرار، وإنما يُطَّلع على السر من قِبَل خمسة: من قِبَل صاحب الرأي، ومن قِبَل مُشاوِرِه، ومن قِبَل الرُّسُل والبُرُد، ومن قِبَل المستمعين الكلام، ومن قِبَل الناظرين في أثر الرأي ومواقع العمل بالتشبيه والتظنِّي، ومن حصَّن سرَّه فإنه من تحصينه إياه في أحد أمرين: إما ظفَر بما يريد، وإمَّا سلامة من عيبه وضره إن أخطأه ذلك."
- "ولا بدَّ لمن نزلت به نائبة من استشارة الناصح، وطَلَبِ من يعاونه على الرأي، ويُفضي إليه، فإنَّ المستشير، وإن كان أفضلَ من المستشار رأيًا، فإنه يزداد بالمشورة رأيًا وعقلًا؛ كما تزداد النار بالودَك ضَوءًا، وعلى المستشار موافقةُ المستشير على صواب ما يرى، والرفق به في تبصيره وردِّه عن خطأ رأيٍ -إن كان منه- وتقليبُ الرأي فيما يُشكَل عليه حتى يستقيم لهما سرُّهما، فإن لم يكن المستشار كذلك، فهو على المستشير مع عدوِّه، كالرجل الذي يَرقي الشيطان ليُرسله على الإنسان، فإذا لم يُحكِم الرُّقية كان به يتلبَّس، وإياه يأخذ..."

وفي حوار ملك الغربان الأخير للغراب الحكيم، كان حوارًا قائمًا على السؤال والجواب تارةً، سواء أكان السؤال استفهامًا أم طلبًا، وتبادل الأخبار تارة أخرى:

"ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: **كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبرَ للأخيارِ على صحبة الأشرارِ؟** قال الغراب: **إنَّ ذلك كذلك، ولكنَّ الرجل العاقل إذا نابه الأمرُ الفظيع الذي يخاف فيه الهلكة الجائحة على نفسه وقومه، لم يجد بدًّا من احتمال الضيق، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو لذلك من رَوح العاقبة...**

قال الملك: **فأخبرني عن عقول البوم**، قال الغراب: **لم أجد فيهنَّ عاقلًا إلَّا الذي كان يشيرُ بقتلي...**

قال ملك الغربان: **لم يُهلِك ملِك البوم إلَّا بغيُه وضعفُ رأيه ورأي وزرائه**، قال الغراب: **صدقت، قلَّما ظفر أحد يبغي، وقلَّ من حرص على النساء فلم يفتضح، وقلَّ مَن أكثر من الطعام فلم يسقَم، وقلَّ من ابتُليَ بوزراء السوء إلَّا وقع في المهالك...**

قال الملك: **لقد احتملتَ مشقة شديدة بتصنُّعك للبوم وتضرُّعك لهنَّ**، قال الغراب: **إنه مَن احتمل مشقة يرجو فيها منفعة صبر على ذلك...**"

وهكذا كانت الحكايتان معبرتين عن عظة (عدم ائتمان العدو) مهمّا أبدى تصنعًا وتضرّعًا، فالعدو الحقيقي لا ينقلب إلى صديق حميم أبدًا.

المبحث الثالث

حكايتا (الناسك وابن عِرس) و(ما حدث لدونيا تروخانا)

إن الناظر في حكاية (ما حدث لدونيا تروخانا) في كتاب (الكوندي لوكانور) يجد التأثر الواضح بما جاء في باب (الناسك وابن عِرس) في كتاب (كليلة ودمنة) التي جاء فيها ما نصّه[28]:

"قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مَثَل الرجل الذي يعمل العمل بغير رويَّة ولا تثبُّت.

قال الفيلسوف: من لم يكن في عمله متأنيًا وفي أمره مُتَثبتًا لم يبرح نادمًا، ومن أمثال ذلك مَثَل الناسك وابن عِرس، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّه كان بأرض جُرجان ناسك، وكانت له امرأة لبثت عنده زمانًا لم تلد، ثم حملت من بعد، فاستبشر بذلك الناسك وقال لها: أبشري فإني أرجو أن تلدي غلامًا يكون لنا فيه متاع وقُرة عين، وأنا متقدم في التماس ظِئر، ومتخيِّرٌ له من الأسماء أحسنها، قالت المرأة: أيها الرجل، ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أو غير كائن؟ فاسكت عن هذا الكلام، وارضَ ما قسم الله لنا؛ فإنَّ العاقل لا يتكلم فيما لا يدري ولا يحكم على المقادير في نفسه، ولا يقدِّر في نفسه شيئًا، ومَن تكلَّم فيما لا يدري –وقلَّ أن يكون– أصابه ما أصاب الناسك المُهريق السمن والعسل على رأسه، قال الناسك: وكيف كان ذلك؟ قالت المرأة: زعموا أنَّ ناسكًا كان يجري عليه من بيت رجلٍ من التجار رِزقٌ من السَّويق والسمن والعسل، فكان يُبقي من ذلك السمن والعسل، فيجعلُ الباقي منها في جرَّة ثم يعلِّقها في بيته، فبينما الناسِك ذات يوم مستلقٍ على ظهره والجرَّةُ فوق رأسه إذ نظر إليها فذكر غَلاء السمن والعسل، فقال: أنا بائعٌ ما في هذه الجرَّة بدينارٍ، فأشتري بالدينار عشرة أعنُز، فيحملن ويلدن لستة أشهر –ثم حزر على هذا الحساب لخمس سنين، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنْز– ثم أبيعها

فأشتري بأثمانها مائة من البقر، بكلِّ أربعة أعنز ثورًا، وأصيب بَذرًا فأزرع على الثيران، فلا يأتي عليَّ خمسُ سنين إلَّا وقد أصبت منها ومن الزرع مالًا كثيرًا، فأبني بيتًا فاخرًا، وأشتري عبيدًا وإماءً ورياشًا ومتاعًا، فإذا فرغتُ من ذلك تزوَّجت امرأةً جميلةً ذات حسَب، فإذا دخلت بها أحبلتها، ثم تلد ابنًا سويًّا مباركًا فأسمِّيه مامه وأؤدِّبه أدبًا حسنًا، وأشتدُّ عليه في الأدب، فإن لم يقبل الأدب منِّي ضربته بهذه العصا هكذا، ورفع العصا يُشير بها فأصابت الجرَّة فانكسرت، وانصبَّ السمنُ والعسل على رأسه ولحيته.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتنتهي عن الكلام فيما لا تدري، فاتَّعَظ الناسك بقولها، ثم إنَّ المرأة ولدت غلامًا سويًّا، فسُرَّ به أبوه، حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها:

اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك، فانطلقت المرأة، ولم يقعد الرجل إلَّا قليلًا حتى جاءه رسولُ الملك فذهب به، ولم يُخَلِّف مع ابنه أحدًا، إلَّا أنه قد كان له ابن عِرسٍ قد ربَّاه فتركه الرجل عند ابنه، وكان مؤدَّبًا معلَّمًا، وذهب إلى الملك.

وكان في بيته جُحرُ أسْودَ، فخرج يريد الغلام، فوثب عليه ابن عِرسٍ فقطَّعه قِطَعًا، وأقبل الناسك عند انصرافه إلى منزله فدخله، فلقيه ابن عرس يسعى إليه كالمُبشِّر له بما صنع، فلما نظر إليه الناسك متلطِّخًا بالدم سُلِب عقله، ولم يظن إلَّا أنه قد قتل ولده، فلم يتأنَّ ولم يتثبت في أمره، فضرب ابن عِرس بعصًا كانت معه فقتله، ودخل منزله فرأى الغلام حيًّا والأسْود مقتولًا، فأقبل يدقُّ صدره ويلطم وجهه وينتف لحيته، وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد، ولم أَصِر إلى هذا الإثم والغَدر، فدخلت عليه المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسْود وابن عِرس مقتولين؟ فأخبرها بالأمر وقال: هذا جزاءُ من يعمل بالعجلة ولا يتثبَّت."

Cuento VII

Lo que sucedió a una mujer que se llamaba doña Truhana

Otra vez estaba hablando el Conde Lucanor con Patronio de esta manera:

-Patronio, un hombre me ha propuesto una cosa y también me ha dicho la forma de conseguirla. Os aseguro que tiene tantas ventajas que, si con la ayuda de Dios pudiera salir bien, me sería de gran utilidad y provecho, pues los beneficios se ligan unos con otros, de tal forma que al final serán muy grandes.

Y entonces le contó a Patronio cuanto él sabía. Al oírlo Patronio, contestó al conde:

-Señor Conde Lucanor, siempre oí decir que el prudente se atiene a las realidades y desdeña las fantasías, pues muchas veces a quienes viven de ellas les suele ocurrir lo que a doña Truhana.

El conde le preguntó lo que le había pasado a esta.

-Señor conde -dijo Patronio-, había una mujer que se llamaba doña Truhana, que era más pobre que rica, la cual, yendo un día al mercado, llevaba una olla de miel en la cabeza. Mientras iba por el camino, empezó a pensar que vendería la miel y que, con lo que le diesen, compraría una partida de huevos, de los cuales nacerían gallinas, y que luego, con el dinero que le diesen por las gallinas, compraría ovejas, y así fue comprando y vendiendo, siempre con ganancias, hasta que se vio más rica que ninguna de sus vecinas.

»Luego pensó que, siendo tan rica, podría casar bien a sus hijos e hijas, y que iría acompañada por la calle de yernos y nueras y, pensó también que todos comentarían su buena suerte pues había llegado a tener tantos bienes aunque había nacido muy pobre.

»Así, pensando en esto, comenzó a reír con mucha alegría por su buena suerte y, riendo, riendo, se dio una palmada en la frente, la olla cayó al suelo y se rompió en mil pedazos. Doña Truhana, cuando vio la olla rota y la miel esparcida por el suelo, empezó a llorar y a lamentarse muy amargamente porque había perdido todas las riquezas que esperaba obtener de la olla si no se hubiera roto. Así, porque puso toda su confianza en fantasías, no pudo hacer nada de lo que esperaba y deseaba tanto.

»Vos, señor conde, si queréis que lo que os dicen y lo que pensáis sean realidad algún día, procurad siempre que se trate de cosas razonables y no fantasías o imaginaciones dudosas y vanas. Y cuando quisiereis iniciar

algún negocio, no arriesguéis algo muy vuestro, cuya pérdida os pueda ocasionar dolor, por conseguir un provecho basado tan sólo en la imaginación.

Al conde le agradó mucho esto que le contó Patronio, actuó de acuerdo con la historia y, así, le fue muy bien.

Y como a don Juan le gustó este cuento, lo hizo escribir en este libro y compuso estos versos:

En realidades ciertas os podéis confiar,
mas de las fantasías os debéis alejar.

كان هذا هو النص الإسباني للحكاية، ونعرض الآن الترجمة العربية له[29].

الحكاية السابعة

ما حدث لدونيا تروخانا

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره، قائلا له:

باترونيو: نصحني رجل أن أصنع شيئا ما، ولم يقل حتى الآن لي كيف أستطيع صنعه، وإني أؤكد لك أنه شيء نافع جدا وإذا أراد الله أن تكون عاقبته كما قال لي، فسيكون ذلك صالحا لي جدا وتكون الفوائد يعقب بعضها بعضا، وبهذه الطريقة في النهاية تكون الفائدة جليلة.

حكى القونت لباترونيو ماهية هذا الصنيع، وحين انتهى أجابه باترونيو: سيدي القونت، دائما سالت من يقول إن من الفطنة أن ترتبط بالواقع، وليس بالخيال، ففي كثير من الأحيان يحدث لمن يثقون بالخيال ما حدث لدونيا تروخانا. سأل القونت: وكيف كان ذلك؟

قال باترونيو: سيدي القونت: كان ثمة سيدة تدعى دونيا تروخانا، أقرب إلى الفقر منها إلى الثراء، ذهبت ذات يوم إلى السوق تحمل فوق رأسها جرة من العسل. أنشأت تفكر وهي في الطريق أنها سوف تبيع تلك الجرة من العسل وتشترى بثمنها مجموعة من البيض، تخرج منها الدجاج، وبعد ذلك تشترى بثمن الدجاج الذي تبيعه غنمات.

وهكذا ذهبت تشترى بالأرباح حتى رأت نفسها أغنى من كل جاراتها، بعد ذلك فكرت في أنها بهذه الثروة عليها أن تزوج صبيانها وبناتها، وتذهب مصحوبة في الشارع بأزواج بناتها وزوجات أبنائها، وتسمع الناس محتفية بحظها العظيم الذي حظيت به في الثراء الواسع بعد أن كانت فقيرة من قبل.

مفكرة في هذا شرعت في الضحك من النشوة التي سرت في جسدها، وعند الضحك لطمت بيدها جبهتها فسقطت الجرة على الأرض، وتهشمت جذاذا، حين رأت

الجرة مهشمة، بدأت تندم على ما ضاع منها بسبب الذي فكرت فيه واستطاعت تحقيقه، لو لم تتحطم الجرة، وبهذه الطريقة ولأنها وثقت في خيالها، لم تحقق شيئا مما كانت تريد.

فيا سيدي القونت إذا أردت الأشياء التي يتحدثون بها إليك، وفكرت في أن تكون واقعا ذات يوم، فانظر مليا في أن تكون ممكنة التحقيق ولا تكون وهما، مشكوكا فيها، وباطلة، وإذا أردت أن تحاول شيئا فتحفظ جدا في المغامرة بشيء تراه بالانتظار الموهوم مكافأة لم تتحقق منها.

راق للقونت كثيرا ما قاله باترونيو، وصنع ما أشار عليه به، وكانت عاقبته حسنة، وأعجب دون خوان بهذا المثل وأمر بضمه إلى كتابه مشفوعا بهذه الأبيات:

ثق في الحقيقة دائما

واعدل عن الأوهام.

التحليل المقارِن للحكايتين

- الإطار السردي:

بين الحكايتين اتفاق وافتراق في الإطار السردي، فقد اتفقت الحكايتان في الحجم الشكليّ تقريبًا، ولم يكن في (كليلة ودمنة) شجرة الحكايات المعتادة التي رأيناها في الحكايتين السابقتين، واختلفتا في الاسم، فكان في (كليلة ودمنة): "**باب الناسك وابن عِرس**"، أما في (الكوندي لوكانور): "**ما حدث لدونيا تورخانا**".

وبينما اختلفتا في الاسم، فقد اتفقتا في المضمون؛ حيث تمثل الموضوع المعالج في بناء القصور على أدراج الرياح أو الأحلام المبالغ فيها، والتي لا تمت إلى لأرض الواقع بصلة، وكذلك تمثل الاتفاق في تطور الأحداث وتسلسلها من حيث: الشخصية، والموقف، والخطط المستقبليّة، وعاقبة التمادي في الأمل الذي لا يعتمد على أساس رد الفعل(30).

ومن الاتفاق في البناء الحكائي سؤال الكوندي: "وكيف كان ذلك؟" وهو السؤال المتردد دائمًا في أمثال (كليلة ودمنة) على لسان الملك، وورد في حكاية (الناسك وابن عرس) على لسان الناسك داخل القصة أيضًا.

بيد أنه في الحكاية العربية كان مَثل (الناسك وجرّة السمن والعسل) المؤثر في حكاية (الكوندي لوكانور) حكاية فرعيّة لحكاية (الناسك وابن عِرس)، ومن ثم نرى أن (دون خوان) تأثر هنا بالفرع لا بالأصل.

والحق أن ذلك ربما يرجع إلى أن هذه الحكاية الفرعيّة هي الحكاية المشهورة والذائع صيتها في الآداب العالمية، فقد ظهرت في (خرافات إيسوب) تحمل رقم 110 بعنوان: (اللبانة والدلو)(31).

- **الشخصيات:**

اختلفت الحكايتان في البطل، فكان رجلا ناسكًا في الحكاية العربية، وامرأة في الحكاية الإسبانية؛ "فقد كان لزامًا على (دون خوان) أن يغير هوية البطل من (ناسك) في كليلة ودمنة إلى (امرأة) في كتابه؛ لأن فكرة الناسك الذي يحلم بزوجة وأولاد غير مقبولة إطلاقًا في العالم المسيحي."(32)

كما أن شخصية الناسك كانت على عكس المتوقع، حيث إنها شخصية عبّرت عن مكنوناتها القابعة في أحلامها، وهي أن يتزوج الناسك بامرأة جميلة، وينجب منها غلامًا سريّا، فهو لم يكن زاهدًا في أحلامه، بل ترك لها العنان حتى باءت بالخسران!

واللافت أن المرأة التي تدعي (دونيا تروخانا) هي الشخصية الوحيدة في القصة، أما الناسك البطل في الحكاية العربية، فلم يسمه، ولم يكن وحده، فكان له زوجته التي كانت له ناصحة؛ ولذلك فهي التي قصّت عليه مَثل (الناسك وجرّة السمن والعسل)، وكانت امرأة لبثت عند الناسك زمانًا لم تلد، ثم حملت بعد ذلك، فاستبشر بذلك الناسك...

والشخصية البطلة في الحكاية الفرعيّة التي تعد الأصل المؤثر –كما قلنا– ناسك أيضًا؛ وبذلك اتحد البطلان في كلتا الحكايتين الأصلية والفرعية في الوصف والتصرف معًا، فانطبق عليهما مقولة الفيلسوف للملك في أول الحكاية: "**من لم يكن في عمله متأنيًا، وفي أمره متثبتًا، لم يبرح نادمًا.**"

فإن كان الناسك في الحكاية الفرعيّة قد كسر جرّة السمن والعسل، فانصب السمن والعسل على رأسه ولحيته، فكذلك تسرّع الناسك في الحكاية الأصلية فقتل ابن عِرس الذي كان قد ربّاه، وتركه عند ابنه، وكان مؤدّبًا معلّمًا، وذهب إلى الملك، فلمّا خرج الأسود من جُحره الذي في البيت يريد الغلام، وثب عليه ابن عِرس فقتله، وقد ظن الناسك أنه بدمائه المتلطخة قد قتل ابنه، فقتله، كما رأينا.

وابن عِرس حيوان من فصيلة العرسيّات، له حاسّة شم قوية وحاسة بصر حادة، وله قوة تثير العجب بالنسبة لحجمه حيث يفترس الفئران والسناجب .وهو يعض الفريسة عادةً في رقبتها أو في أسفل الجمجمة. ويأكل ابن عرس كذلك ديدان الأرض والحشرات والضفادع والسحالي والأرانب والذُّباب والحيّات والطيور. وجسم ابن عرس النحيل يمكنّه من أن ينفذ بسهولة إلى جحور الفئران وشقوق الصخور وأعشاش السناجب. وكثيرًا ما يقوم ابن عرس باجتياح المزارع ويقتل من الدجاج أكثر مما يحتاج إليه في طعامه...[33] ولعلّ ذلك هو سبب اختياره ليقوم بدوره في قتل الأسْوَد.

والأسْوَد هذا حيوان كالحيةّ "من طباعه أنه يحقد ويطالب، ويكمن في المتاع حتى يدرك بطائلته، وله زمان يقتل فيه كل شيء. وله عينان يقتلهما القناص لكرامتهما وندرتهما..."[34]

وبذلك تنفرد الحكاية في (كليلة ودمنة) بوجود إطار سردي أساسي يتضمن خمسة أشخاص، هي: الناسك وامرأته، وابن عرس، والأسود، والغلام.

ومن ثمّ نرى أن هذه الحكاية تتميز بأن أبطالها لم يكونوا من الحيوانات أو الطير فحسب، بل كان أكثرهم من البشر، فلم يظهر الحيوان سوى في شخصيتي (ابن عِرس) و(الأسود).

بل إن الحكايتين اللتين بينهما التأثير والتأثر تعدان خالصتين للجانب البشري، حيث نرى (الناسك) في مقابل المرأة (دونيا تروخانا).

- **الحوار:**

بناء على ما تقدّم، نرى أن الحوار كان من خلال البطلين فقط في الحكاية العربية، ناهيك عن الحوار المعهود، والذي تحدثنا عنه، بين الملك والفيلسوف في (كليلة ودمنة)، وبين الكوندي وباترونيو في (الكوندي لوكانور). أما البطلان في (كليلة ودمنة) فهما: الناسك وامراته، وذلك على الرغم من أن العنوان (الناسك وابن

عرس)؛ لأن ابن عرس كان ظهوره لبيان العبرة، ولم يصدر منه في الحكاية العربية أي كلمة فضلا عن حوار. وقد تميّز حوار الناسك مع امرأته، بمفارقة مصدرها تغيير الأدوار المفترضة في واقع الحياة؛ حيث رأينا أن المرأة هي التي تنصح لزوجها، وتنطق بالحكمة:

"قالت المرأة: **أيها الرجل، ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أو غير كائن؟ فاسكت عن هذا الكلام، وارضَ ما قسم الله لنا؛ فإنَّ العاقل لا يتكلم فيما لا يدري ولا يحكم على المقادير في نفسه، ولا يقدِّر في نفسه شيئًا، ومَن تكلَّم فيما لا يدري –وقلَّ أن يكون– أصابه ما أصاب الناسك المُهريق السمن والعسل على رأسه...**" وفي نهاية القصة قالت لزوجها الناسك: "**هذا جزاءُ من يعمل بالعجلة ولا يتثبَّت.**"

أما الناسك فقد تمثّل حواره في أحلام يقظته التي أفضى بها إلى امرأته، وفي ردّه الأخير حين سألته: ما يبكيك؟ فأجابها بما حدث بسبب حماقته وتسرعه!

وعلى ذلك كانت المرأة هي صاحبة النصيب الأكبر من الحوار، ولا نبالغ إذا قلنا إنها بسبب ذلك تعدّ البطلة الراوية التي وحّدها السرد مع الفيلسوف بيدبا الذي كان قسيم الملك في البطولة، وراوي الحكايات له.

وبعد، فلا يخفى بعد هذه المباحث الثلاثة الالتقاء والثراء بين أدب الأطفال والأدب المقارن، هذا إذا ما نظرنا بشكل مباشر إلى الغاية التعليمية والتربويّة المستقاة من الحكايات الرمزية في كلا العملين (كليلة ودمنة) و(الكوندي لوكانور)، والتي دار أغلبها على ألسنة الحيوان والطير، كما رأينا بين (الأسد والثور)، وبين (الغربان والبوم)، وكذلك مزجت الحكايات بين الحيوان والإنسان، كما قرأنا في حكاية (الناسك وابن عِرس)، وكما خلصت للإنسان فقط في حكاية (ما حدث لدونيا توخانا).

فغاية التأليف التربوية والتعليمية كانت حافزًا أساسيًّا في عملية التأثير والتأثر بين الأدب العربي والأدب العالمي؛ مما يمكننا معه أن نؤرخ لمولد أدب الأطفال في تراثنا العربي عابرًا إلى غيره من الآداب العالميّة.

الهوامش:

(1) عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، تصدير: د. طه حسين، مؤسسة هنداوي، 2014م، ص8.

(2) د. محمد زكريا عناني: الأدب المقارن وقضايا التأثر والتأثير، دار كريدية، بيروت، 1999م، ص178.

(3) د. أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، مؤسسة كليوباترا لطباعة الأوفست، ط2، 1982م، ص63.

(4) سيث ليرر: أدب الأطفال من إيسوب إلى هاري بوتر، ترجمة: د. ملكة أبيض، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010م، ص43- 44.

(5) عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، طبعة جديدة منقحة للنسخة التي حققها وقدّم لها الدكتور عبد الوهاب عزام، دار الشروق، بيروت- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص37- 38.

(6) أحمد شوقي: الشوقيات، تحقيق وتبويب، وضبط وتعليق: د. علي عبد المنعم عبد الحميد، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط1، 2000م، ص91.

(7) د. عاطف جودة نصر: أصوات من التراث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2013م، ص32- 33.

(8) د. إبراهيم عوض: من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة، دار الفردوس، القاهرة، 2011م، ص173.

(9) عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، مصدر سابق، ص25.

(10) د. سهير القلماوي، ود. محمود علي مكي: الفصل الأول (في الأدب) من كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م، ص76- 77.

(11) د. علي عبد الرءوف علي البمبي: أثر الثقافة الإسلامية في كتاب «الكوندي لوكانور»، مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثاني- أكتوبر/ ديسمبر 1996م، ص314.

(12) دون خوان مانويل: الكوندي لوكانور: كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال مفيدة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، 2016م، مقدمة المترجم: عبد الهادي سعدون، ص12.

(13) د. عبد اللطيف عبد الحليم: الأثر العربي في القصص الإسباني– مَثَلٌ من القونت لوقانور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010م، ص35.

(14) انظر على سبيل المثال المرجعين الأخيرين، ود. علي عشري زايد: قصص الحيوان بين الأدب العربي والآداب العالمية (دراسة مقارنة في رحلة جنس أدبي)، دار النصر للطبع والنشر والتوزيع، 2001م.

(15) انظر باب (الأسد والثور) كاملا في (كليلة ودمنة)، طبعة دار الشروق السابق ذكرها من ص81 حتى ص130.

(16) أخذنا النص الأصلي لحكايات الكوندي لوكانور من موقع مكتبة ثربانتس على شبكة الإنترنت بهذا الرابط:

*https://www.cervantesvirtual.com/obra-visor/el-conde-lucanor--0/html/00052e2a-82b2-11df-acc7-002185ce6064_1.html#I_25_*

(17) اعتمدنا في إثبات الترجمة على ترجمة الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم، في كتابه: الأثر العربي في القصص الإسباني، مَثَل من القونت لوقانور، مرجع سابق، ص 154–158. ونلاحظ أن د. عبد اللطيف آثر أن يكتب اسم (الكوندي لوكانور) بالقاف (القونت لوقانور).

(18) ما بين معقوفين ساقط في نسخة الترجمة التي اعتمدناها؛ لذا أكملناه بترجمتنا.

(19) انظر حاشية المترجم عبد الهادي سعدون في الكوندي لوكانور، مرجع سابق، ص17.

(20) الأثر العربي في القصص الإسباني، مرجع سابق، ص26.

(21) أصوات من التراث، مرجع سابق، ص31، و32.

(22) السابق، ص30.

(23) كليلة ودمنة، ص346.

(24) انظر: أصوات من التراث، 22: 29.

(25) الأثر العربي في القصص الإسباني، ص31.

(26) انظر الحكاية كاملة في (كليلة ودمنة) في (باب البوم والغربان)، ص183: 216.

(27) انظر ترجمة الحكاية التاسعة عشرة في: الأثر العربي في القصص الإسباني، ص140: 143.

(28) كليلة ودمنة، ص231: 233.

(29) انظر ترجمة الحكاية السابعة في: الأثر العربي في القصص الإسباني، ص100: 102.

(30) أثر الثقافة الإسلامية في كتاب "الكوندي لوكانور"، مرجع سابق، ص316.

(31) الأثر العربي في القصص الإسباني، ص45.

(32) أثر الثقافة الإسلامية في كتاب "الكوندي لوكانور"، مرجع سابق، ص316.

(33) انظر: شبكة ويكيبديا على الإنترنت:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%B9%D8%B1%D8%B3

(34) كليلة ودمنة، ص344.

المصادر والمراجع

- د. إبراهيم عوض: من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة، دار الفردوس، القاهرة، 2011م.
- أحمد شوقي: الشوقيات، تحقيق وتبويب، وضبط وتعليق: د. علي عبد المنعم عبد الحميد، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط1، 2000م.
- د. أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، مؤسسة كليوباترا لطباعة الأوفست، ط2، 1982م.
- دون خوان مانويل: الكوندي لوكانور: كتاب الحكايات والمسامرات والأمثال مفيدة، ترجمة: عبد الهادي سعدون، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، 2016م.
- د. سهير القلماوي، ود. محمود علي مكي: الفصل الأول (في الأدب) من كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م.
- سيث ليرر: أدب الأطفال من إيسوب إلى هاري بوتر، ترجمة: د. ملكة أبيض، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010م.
- د. عاطف جودة نصر: أصوات من التراث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2013م.
- د. عبد اللطيف عبد الحليم: الأثر العربي في القصص الإسباني– مَثَلٌ من القونت لوقانور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010م.
- عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، طبعة جديدة منقحة للنسخة التي حققها وقدّم لها الدكتور عبد الوهاب عزام، دار الشروق، بيروت– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.

- عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، تصدير: د. طه حسين، مؤسسة هنداوي، 2014م.
- د. علي عبد الرءوف علي البمبي: أثر الثقافة الإسلامية في كتاب «الكوندي لوكانور»، مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثاني- أكتوبر/ ديسمبر 1996م.
- د. علي عشري زايد: قصص الحيوان بين الأدب العربي والآداب العالمية (دراسة مقارنة في رحلة جنس أدبي)، دار النصر للطبع والنشر والتوزيع، 2001م.
- د. محمد زكريا عناني: الأدب المقارن وقضايا التأثر والتأثير، دار كريدية، بيروت، 1999م.
- مكتبة ثربانتس على شبكة الإنترنت:

*https://www.cervantesvirtual.com/obra-visor/el-conde-lucanor--0/html/00052e2a-82b2-11df-acc7-002185ce6064_1.html#I_25_*

- موسوعة ويكيبديا على الإنترنت:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%B9%D8%B1%D8%B3

- *Aly Abdelraoof Albamby: Huellas de la cultura Islámica en "El Conde Lucanor", Misr University Journal for Humanities Studies, Volume (4) Issue (3) July 2024.*